الفصل السادس

الجندي الكوني: أمريكا بوصفها رواية كوكبية

إنه ليل. ثمة جندي يشق طريقه بحذر عبر خراب إحدى قرى الغابة. جثث رفاقه الجنود مقطوعة الآذان مبعثرة بين القرويين القتلى. صوت الأنين الشاكي مسموع. في مبنى مدمر يعثر على قرويين: فتاة وصبي، موثقين وراكعين أمام رقيبه المشغول بنظم غنائمه ـ آذان جنوده ـ في عقد. ما الذي جرى هنا؟ تمت إبادة هذه القرية، يقوم الجندي بلَوْم رقيبه، هؤلاء الناس كانوا، جميعاً، أبرياء. بحركة مجنونة، يلوِّح الرقيب بتعويذة قوَّته، بعقده المصنوع من الآذان البشرية، ويفسر: لم يسمعوا الكلام. جميعهم خَوَنة، عناصره، القرويون، كلهم مستعدون للانقضاض عليك وطعنك في الظهر. يقول الرقيب: "كيف حصل هذا الأمر اللعين؟" "حصل ونقطة على السطر". يحاول الجندي أن يكون استرضائياً، يقول: "انتهت فترة خدمتي. لا أريد إلا العودة إلى الوطن. هيا نذهب!" غير أن الرقيب مكلف بمهمة: "أنت مثل الآخرين تماماً، تريد فقط أن ترحل وكأن شيئاً من هذا لم يحصل. إلا أنه حصل ولا يمكن شطبه وكأنه لم يكن. لقد حصل. هل تسمعني؟" يقول الرقيب بإصرار. يثور على الجندي، يأمره أن يثبت أنه ليس خائناً بإطلاق النار على الأسيرين بوصفهما جاسوسين. وحين يرفض، يُقْدم الرقيب، ببرود، على إطلاق النار على الصبي في الرأس. ينقض الجندي على الرقيب ويصرعه أرضاً، ينتزع الفتاة الساخطة ساحباً إياها من حضن الجثة. يهربان، ولكنهما مطاردان. يسدد الرقيب ويطلق النار على مرؤوسه المتمرد في الساق؛ يصرخ وهو يقع طالباً من الفتاة أن تركض. يقوم الرقيب برمي

قنبلة على شبحها المبتعد الذي يمزقه الانفجار. شديد السخط على هذه المذبحة الطائشة، يسدد الجندي سلاحه على الرقيب؛ تحت وابل غزير من الرصاص يقتل كُلٌّ منهما الآخر.

مع ضوء الفجر الباكر تصل حوّامة لتحط. ينزل ضابط أمريكي من الآلة الدائرة بصخب ويتوغل في القرية المدمَّرة حيث تكون عملية تطهير جارية على قدم وساق. عنصر من الفريق الطبي عثر على جثة الرقيب وراح يعاين، بكثير من التهيب والجزع، عقد الآذان البشرية، قائلاً لزميله: "كم أكره أن أكون هذا الوغد السافل المسكين الذي سيتعين عليه أن يفسر هذا السلوك الدنيء لأبويه، للبابا والماما! "ويسأل آخر": كيف نكتب عن هذا؟ "فيرد الضابط": لم يحدث أي شيء هنا على الإطلاق. سجِّلوا أنهم فُقدوا في المعركة ـ لم تعثروا على أحد. نسمع الضابط وهو يغادر متصلاً عبر اللاسلكي بـ"حمار الوحش" لإبلاغه عن وجود عشر جثث مع الإيعاز بوضعها في الأكياس وتجميدها. ذلك هو المشهد الذي يبدأ به فلم الجندي الكوني للمخرج رونالد إيمريخ في 1992.

بعد التمهيد الذي يحمل عنوان "فيتنام" 1969، ينتقل المشهد إلى "اليوم" ليقدم الذروة، الفكرة التي تشكل محور قصة الفلم. ثمة طائرة شحن تهبط في الصحراء وتلفظ شاحنة عملاقة، مشؤومة، على المدرج، حيث عُصبة من الجنود الحرس في الانتظار. تغمغم الشاحنة وتنتفخ أمام أعيننا. جنود بملابس صحراوية يخرجون منها. يصطفون في رتل للتفتيش أمام الخبير الفني الذي يتولى اختبار المناظير الآلية المثبتة والخوذات التي يعتمرها الجنود للتأكد من أنها ترسل صوراً واضحة وتبث رسائل صوتية بعيدة إلى أجهزة المراقبة والرصد الموجودة داخل العربة. وفي أثناء مرور الجنود بالتفتيش نتعرف على العسكريَّين اللذين

رأيناهما وكل منهما يقتل الآخر في القرية الفيتنامية. وفوراً، يتم نقلنا من أهوال الحرب التقليدية المرعبة إلى عوالم الخيال العلمي وإعدادنا لاستقبال عبارة توضيح الصورة المتكشفة: "للمستقبل موقف سيء". لقد جرى إعادة بناء هذين الرجلين بعد إعادة خلقهما بوصفهما جنديَّين كونيَّين. ثم نراهما وهما يقومان بما هو فوق طاقة العسكريين أو عناصر الشرطة العاديين. في سد هوفر، ثمة إرهابيون احتجزوا عدداً من الرهائن الذين سيقتلونهم، واحداً بعد الآخر، إلى أن يتم إطلاق سراح زملائهم من السجن. ولكن الإرهابيين ليسوا بمستوى التكنولوجيا المتفوقة والقدرات الرهيبة للجنود الكونيين. حوامة محلقة تقترب بسرعة. بيسر، يقفز الجنود الكونيون من الحوامة إلى الماء، يقطعون مسافة الميل والنصف إلى السد سباحة في أقل من أربع دقائق، يتسلقون الأبراج مثل سرب من العناكب على شريط ثم ينزلقون على الطريقة الاسترالية ـ ووجوههم إلى الأمام ـ على الجدار الداعم كما لو كان رصيفاً مستوياً. تحركاتهم كلها مراقبة ومرصودة من قبل العلماء هناك في الشاحنة. يسارع الجنود الكونيون إلى الإجهاز على عناصر الحراسة الذين كلفهم الإرهابيون بالحراسة، ويدخلون السد. وحين يتعرض أحد جنود المستقبل هؤلاء للحصد من قبل الأشرار، فإن جراحَه تنزف بغزارة ويقع، مقتولاً على ما يبدو. غير أن ذلك ليس البنيان الذي يبتكره الخيال العلمي جندياً كونياً. لحظة اطمئنان مهاجميه إلى زواله الواضح، تتحرك يده الميتة تلتقط سلاحاً يستخدمه بكفاءة للقضاء على الإرهابي المتحكم بالقنبلة، الميزة التي منعت القوات التقليدية من إنقاذ الرهائن. وبعد بضع طلقات إضافية للقضاء على من بقي من الإرهابيين تكون المشكلة قد حُلَّت. مؤتمر صحفي يُعْقَد على عجل لجمهرة الصحفيين المنتظرين.

يعلن ضابط في الزي العسكري: "إنه النجاح الثالث للجنود الكونيين ـ دون قتلى، دون جرحى. أما هويات الجنود الكونيين فتلك من الأسرار المكتومة".

لقد ظلت الأفلام النوعية، على الدوام، ذات آلية تخصها، ومع ذلك فإنها تنجح ليس فقط بخروجها على المألوف، بل ولأنها تجسد، تستند إلى وتسترشد بما لدى أمريكا من قيم، مُثُل وخبرات. إذن، لابد لفلم الجندي الكوني من أن يكون، إضافة إلى سائر عناصره المستحيلة والمنافية للعقل، متمتعاً بنوع من التصور الواضح للمآزق الصعبة التي تواجه الإمبراطورية الأمريكية. ما فوائد القوة وعواقبها؟ ما العواقب الإنسانية المترتبة على صيرورة مبدأ القوة القَدَري السلطة المهيمنة؟ القسوة متجذرة في الصراع: كيف يؤثر هذا على قواته الخاصة؟ ما الذي يعنيه الأمر على الأصعدة الإنسانية، الاقتصادية والسياسية في أمكنة بعيدة "هناك" بالنسبة إلى أناس آخرين؟ في صلب منطق الإمبراطورية الأمريكية هناك على الدوام نوع من التوتر الكامن في عمق السعي إلى التمييز بين الصديق والعدو، جنباً إلى جنب مع الخوف الدائم من الغَدْر. فالقوة الداعمة للإمبراطورية تعوِّل على التفوق التكنولوجي؛ وهي ذات ثمن باهظ، وتستوجب تنظيماً شاملاً للأمة واقتصادها. ومدى نفوذ الجبروت الإمبراطوري يعني المبادرة إلى استعراض العضلات للتأثير في أحداث بعيدة عن أرض الوطن، امتلاك القدرة على التحكم عن بعد بأساليب بعيدة عن متناول الأمريكيين العاديين. وفي الفلم تكون التوترات والآثار المترتبة على منطق الإمبراطورية متجسدة بالشخصيات المركزية: الرقيب آندرو سكوت، القاتل المهووس الذي تتركز غايته، كما يفسر لاحقاً، على مجرد "كسب

هذه الحرب"؛ وغريمه الجندي الطيب لوك دفيرو الذي لا يحلم إلا بالعودة إلى الوطن. ما مدى إمكانية إدارة الظهر للمآزق الناجمة عن ممارسة القوة والرحيل؟ هل يمكن مجرد الابتعاد؟ ما مدى إمكانية إبقاء تفاصيل وعواقب ممارسة الحكم الإمبراطوري بعيدة، في منأى عن الحياة العادية، هناك في أمريكا؟ وما سبيل تفسير الأمر كله للماما والبابا؟ ما الذي يعرفانه عن بيان المهمة، وما الذي ينبغي أن يعرفاه عن واقع الرسالة الإمبراطورية؟

بين ما هو مثالي وما هو واقعي هناك الظل أو الشبح. وبالنسبة إلى أمريكا ظَلَّ الشبحُ أو الظل متمثلاً بأمريكا. أصالة الحالة لا تقل عن حتميتها. فإرادة التوسع، الانتشار، المنافسة والتفوق متجذرة في عمق فكرة أمريكا بالذات. إنها السبب وراء استيطان الأرض من البداية، وهذا الفهم للتاريخ هو التراث الثقافي العائد لشعبها. ظلت مسألة بلوغ مصير أمريكا، الحفاظ عليه وصيانته تعني سلسلة من الصراعات، من الحروب مختلفة الأنواع ـ الساخنة، الباردة، الطاحنة الوحشية، الإقليمية، الحدودية والعابرة ـ وتجعل من الحرب موضوعاً متجذراً في عمق الوعي الاجتماعي للحياة القومية، الصورة المجازية المثالية بالنسبة إلى من يرون أنهم "قادرون". غير أن جميع المُثُل التي تدعي أمريكا الوقوف في صفها، تلك المثل التي تعكسها وتعدها وصفاً ذاتياً، تتركز، بالمقابل، على صورة السلم، حرية السعي إلى الوفرة النموذجية لنمط حياتها وفقاً للمبادئ التي قامت على أساسها الدولة التي هي من صنع الشعب وبجهوده ومن أجله. من الأمور الطبيعية في مستعمرات المستوطنين غرس روح "انهض واذهب!"؛ والصعوبات المحلية هي الزخم الدافع إلى الحركة، إلى البحث عن مكان جديد غير مثقل بأي مشكلات. وأي مستوطنة ذات أبعاد قارية

لا تستطيع أن تعيش وتتوسع موفِّرة فرصة الاستمرار في حالة السلم لأهلها إلا من خلال الحرب. ومثل هذه المستعمرة الاستيطانية إمبريالية في العمق وإقليمية كلياً ـ في الوقت نفسه.

تتمحور أساطير أمريكا وخرافاتها حول الحرب، حول مآثر السلاح، تلك القوة التي اجترحت للأمة مدى جغرافياً ووجوداً سياسياً. ظلت القوة واستخدامهاتها، على الدوام، في قلب التجربة الأمريكية. والإيديولوجيا المستخلصة من هذه الحكايات تشيد بفضائل السلم والاستقرار الداخليين، بالتنبه إلى ضرورة الدفاع عن النفس والاستعداد له، ولكن دون إهمال الاستمتاع الهادئ بمواصلة الحياة. تبقى أمريكا فريدة من حيث أنها أمة تحددها الأفكار ورموزها، بدلاً من أرض أو شعب معينين. فاستيطان أمريكا بدأ مشروعاً إمبراطورياً. والأمة التي أعلنت استقلالها نشأت بوصفها "إمبراطورية"، كما سُميت من البداية. ما لبثت أن ورثت عباءة القوة الإمبريالية التي أطاحت بها عن طريق التنظير لنفسها والزعم بأنها المعنى الصحيح للأمة والإمبراطورية. ومن خلال إعلان أنها أمة قائمة على أساس مبادئ محدِّدة هي التعبير الأكمل والأمثل لحلم الإنسان، كانت الولايات المتحدة حديثاً مؤهلة عن جدارة للاضطلاع بحَمْل رسالة بناء كيان إمبراطوري على أنها قدرها المعلن. إن أمة من المهاجرين تظل كتلتها السكانية دائبة على النمو عبر اجتذاب موجات جديدة من الهجرة ليست شعباً. وما صنع الشعب الأمريكي إلا عملية غَرْس واستيعاب جملة الأفكار والرموز التي تقيم عليها الأمة هويتها. فالتجربة المشتركة للشعب الأمريكي مكتسبة من خلال المجيء إلى أمريكا. والكتلة الكبرى من سكان أمريكا جاءت إلى أمريكا لدى إغلاق التخوم الغربية. وكما رأينا في الفصل الرابع فإن ما

يزيد على أحد عشر مليوناً من المهاجرين شقوا طريقهم إلى أمريكا بين عامي 1870 و1900، وأن 60 بالمئة من أهالي كبرى المدن الأمريكية كانوا، مع حلول عام 1900، إما أمريكيين ولدوا في الخارج أو أمريكيين جيل أول. كان التاريخ الأمريكي تجربة تم تعلُّمُها، جرى بناؤها والإحاطة بها، بوعي، عن طريق مؤسسة الثقافة الشعبية ورواياتها الأسطورية، الصيغة الأسهل على الهضم والتمثُّل من صيغ التثقيف الإيديولوجي بالنسبة إلى من هم على طريق التحول إلى أمريكيين. تمثلت القوة التي أبقت الأمة متماسكة بالبوتقة الإيديولوجية، بالمُثُل الإيديولوجية للوصف الذاتي الأمريكي. ومفهوم أن التراث والتاريخ الأمريكيين روايتان كونيتان قابلتان للتطبيق في كل زمان ومكان هو أحد أركان هذه الإيديولوجيا ـ لعله المفهوم المتمثل بالناموس العاشر للميثولوجيا الأمريكية.

أمريكا هي الملجأ؛ إنها ملاذ مؤهل لتوفير العلاج الشافي لسائر علل العالم القديم وأمراضه. كانت جملة مشكلات الحرب، الاضطهاد، الاستبداد والفساد هي كوارث حياة السلم التي أراد مسوطنو أمريكا أن يهربوا منها. والقيم الإيجابية التي جاؤوا لتفعيلها تمثلت بالحريات القائمة على السلم، بتمكين كل فرد من أن يقرر بنفسه أفضل طرق الحياة التي تناسبه دونما قيود مفروضة من حكومات قمعية أو عواهل وملوك من مختلف المشارب. الحياة، الحرية والسعي إلى السعادة ـ هل ثمة أي مفاهيم أكثر قدرة على التوحيد بالنسبة إلى أولئك الهاجرين لحياتهم القديمة والحالمين بما هو أفضل في الأرض الجديدة المقدر لها أن تكون وطنهم؟ يشكل الهدوء الداخلي الضروري لبناء حياة أفضل جوهر الحلم الأمريكي. وقد جرى التعبير عن ذلك من منطلقات توراتية منذ البداية ـ فأمريكا هي أرض كنعان، أرض اللبن والعسل، المأهولة

ببني إسرائيل الجدد. وأولئك الذين وصلوا إلى أرض الميعاد هذه إن هم إلا أناس مستعدون للعيش في سلام، أناس يحبون السلم ويسعون إليه ـ وتلك لازمة يعشقها جورج دبليو. بوش الذي درج على الإكثار من تلاوتها في خطب ما بعد 9/11، التاريخ الذي بدأ منه عملية إعداد أمريكا للحرب فأصبح، كما دأب على تذكير الناس بإطراد، رئيس زمن حرب.

تضاهي فكرة أمريكا، حسب المنطلقات الكوكبية، جملة مُثُل أمريكا، من حيث كونها مفهوماً إنسانياً كونياً شاملاً. وكل من إعلان الاستقلال والدستور يحرضان على استخدام لغة نثرية رشيقة للتعبير عن سلسلة من المفاهيم والحقائق العظيمة بوصفها تعاليم إنسانية كونية ثابتة وواضحة وضوح الشمس. وهذه المفاهيم، حين يتم إدراكها بصيغتها النموذجية المثالية، تتجاوز السياق والظرف وتأبى الاعتراف بالتفاصيل المحلية. لم يقف الأمر عند صيرورة أمريكا وطناً لمهاجرين وافدين من العالم، بل تجاوزه، إذ باتت، من حيث الجوهر والمعنى، باقة أروع وأجمل أحلام العالم والإنسانية. إنها الملاذ الحلم بالنسبة إلى كل الإنسانية التواقة لأن تكون حرة. لذا فإن من الطبيعي أن يرى الأمريكيون أساطيرهم وروايتهم التاريخية بوصفها الرواية العظمى، بوصفها قصة كوكبية لما سيكون، وينبغي أن يكون، عليه العالم، شرط أن يستطيع. تبقى أمريكا حلماً مسيحانياً ذا أبعاد كوكبية؛ تتلخص رسالتها بأن تكون مستقبل الإنسان. وحين تتعرض أمريكا للتهديد ـ هدفاً لهجمات، مشغولة بالدفاع عن النفس أو منخرطة استباقياً في نزاع معين ـ فإن ما يواجه الخطر ويجب الدفاع عنه ليس كياناً حضارياً تاريخياً معيناً، مجرد حَلَقة في سلسلة قوى أرضية متعاقبة، فقط، بل هو مجمل المُثُل الإنسانية الأكثر جذرية. وبمعنى عميق ومباشر، إذن، تكون معارضة

أمريكا تصدياً لكل ما هو خير وإيجابي جداً في طموح الإنسان. والأهم من كل شيء أن رؤية أمريكا لنفسها رواية كوكبية تتأكد بحقيقة كونها الأمة الأغنى والأقوى التي عُرفت في تاريخ الإنسان. بكل بساطة، يتعين على أمريكا أن تكون ما ظل كل التاريخ والجهد الإنساني دائباً على بلوغه، الكشف عن النمط الأعظم. إذا أراد العالم كله أن يتقدم، فليس ثمة ولا يمكن أن يكون أي سبيل آخر سوى اتباع الطريقة الأمريكية. وهذه الأطروحات تشكل مجتمعة حُزْمة تبريرات للدور الذي يجب على القوة الأمريكية أن تضطلع به على المسرح العالمي.

إن التراث الأسطوري نفسه، جملة الروايات والموضوعات المألوفة المستمدة من تاريخ أمريكا تنتقل بيُسر من تخوم الغرب إلى حدود كوكب الأرض. فالصورة الذاتية الموحِّدة لأمريكا تنتقل من التاريخ إلى الحاضر فإلى قلب المستقبل باطراد لافت، في اتساق إيديولوجي يجعل أمر التوقف وطرح الأسئلة صعباً. رسالة أمريكا هي رسالة العالم، فأي شيء آخر يسعى باقي العالم إلى بلوغه؟ إن التراث الأسطوري الذي هو الذخر الثقافي لجميع الأمريكيين مشكَّل ومعبر عنه من منطلقات كفيلة بجعل أي الأحوال وكلها منطوية على معنى إيديولوجي مطرد. أمريكا هي العالم كما ينبغي أن يكون، ومن شأن العالم أن يصبح أمريكا شرط أن يستطيع. هل من مزيد يمكن قوله؟ ثمة، في الحقيقة، أشياء كثيرة جداً يمكن قولها عن تفاصيل التاريخ، الثقافة، الظرف وعواقب السلطة في التاريخ والحاضر. غير أن العالم بكل ما فيه من تعقيد بعيد عن حَيَوات الأمريكيين العاديين المعزولين عن باقي العالم بفعل الحاجات التنافسية المستهلكة للحفاظ على الوَفْرة التي تنعم بها أنماط حياتهم والتفسيرات المعزية بحضور رؤية أمريكا الأسطورية الطاغي.

بصرف النظر عن مدى محدوديته وأنانيته كتاريخ، فإن الأمريكيين يسلّمون بصحة التأكيد المكرر كثيراً لواقع أنهم انتصروا في حربين عالميتين، منقذين الحضارة الغربية من نفسها. فبعد كَسْب الحرب العالمية الثانية والانبثاق من جحيم ذلك الصراع بوصفها القوة الأكبر جبروتاً في العالم، وازدهار اقتصادها بفعل إنتاج زمن الحرب دون تعرض أرض الوطن لأي هجوم، أصبحت أمريكا قوة عظمى. تضافر كل من الواقع، النزعة المثالية والإيديولوجيا في تأكيد صحة المنطق القائل بضرورة اضطلاع أمريكا بجملة المسؤوليات والواجبات المترتبة على تحركات زمن الحرب والنفوذ المتراكم. بوصفها قوة العالم القيادية باتت متولية دور ترتيب النظام الكوكبي وفقاً لقيمها الخاصة لمصلحة جميع الأمم. ثمة تخوم كوكبية جديدة باتت واقعاً، ومثل نظيرتها التخوم الغربية جاءت مصحوبة بعدوٍّ كوكبي، عدو إيديولوجي كان نقيضاً لفكرة أمريكا، عدو سعى إلى إحباط المُثُل الأمريكية ونسفها في كل الأمكنة. في أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت أمريكا مسرَّحة، مسترخية، في سلام وعازمة على تحقيق الوَفْرة الاستهلاكية محلياً، ودائبة في الوقت نفسه على خوض الحرب في كل الأمكنة مربكة جحافل من العداء في الداخل و"بعيداً هناك".

في الأساطير المقيمة المترجمة بسهولة كبيرة عن لغة التخوم الغربية إلى لغة الحدود الكوكبية، بقيت الشخصية المركزية، شخصية البطل، نمطاً خاصاً. في أفلام الغرب يكون البطل، كما أشرنا في كتاب لماذا يكره الناس أمريكا؟[1]، شخصية ملتبسة، رجلاً قادراً على استخدام العنف ومفوضاً بذلك، قادراً على أن يكون صلباً، قاسياً ومتوحشاً مثل أولئك الخارجين على القانون أو الهمجيين الذين يعارضون ويهددون

التوسع السلمي للاستيطان، محطات حضارة المستقبل الأمامية المتقدمة. على النسق نفسه تكون الحرب الأخلاقية أداة تثقيف بالغة الصرامة، كما يتكرر في عدد كبير جداً من أفلام الحرب على ألسنة جميع أولئك الرقباء المخضرمين الدائبين على تدريب مشاة البحرية، المارينز، أو أولئك الضباط الذين لا يعرفون معنى المساومة والذين يتعين عليهم أن يجبروا جنودهم على فِعْل كل ما هو مطلوب للانتصار. على الحضارة، في الحالات المتطرفة، إذا أرادت أن تكون آمنة، أن تقابل العنف بالعنف ـ ذلك هو ما يعنيه مبدأ الدفاع عن النفس. لابد لها من استخدام معارف العدو واستراتيجيته إذا أرادت أن تهزمه. يبقى البطل حريصاً على تمكين الجمهور العريض، العائلات، القرويين الأبرياء، من العيش بسلام، من أن يكونوا، ويفكروا بأنهم، أناس مسالمون، رغم تعرض أعدائهم للإبادة. إن الحرب هي القلعة الواقية من هاجس التعرض لغزو الأعداء المتوحشين، القُساة والعدوانيين مئة بالمئة، وقد امتلأت قلوبهم حَسَداً وتصميماً على الإطاحة بالتقدم السلمي الذي هو معنى الحلم الأمريكي. وعقيدة التصدي للمعارضة والقوة باستخدام قوة تدميرية متفوقة عبر توظيف "استراتيجيات الإبادة، ذات جذور عميقة وفي أعراف الأسطورة الأمريكية. لقد كانت طريق الحرب قصة استنفار التصميم الصارم والنظرة المشتددة لبطل الوَسْتَرْن (أفلام الكاوبوي) إلى تكنولوجيا الجبروت العسكري الدائبة على التطور.

في الحرب العالمية الثانية تمخض تضافر التكنولوجيا، عسكرة العلوم والمبادرة إلى تطبيقها في استراتيجيات الإبادة، عن طريقة أمريكية مميزة في استخدام القوة كما يقول مايكل إس. شيري:

كشفت الطريقة الأمريكية في خوض الحروب عن نوع من

"التعصب التكنولوجي" ـ نوع من الحماسة لتدمير الأعداء تكنولوجياً ـ المتناقض مع التعصب الإنساني الواضح لدى النازيين المولعين بالإبادة واليابانيين المجانين. بفضل تفوقهم الاقتصادي والتكنولوجي كان الأمريكيون قادرين على إشباع غرائز الحرب التدميرية مع الاستمرار في رؤية أنفسهم أناساً مختلفين عن أعدائهم. بعيداً عن الالتفات إلى خسائر العدو البشرية. بقي العلماء قادرين على إلزام القوات المسلحة بتكنولوجيات حديثة، وظلت طواقم قاذفات سلاح الجو قادرة على حرق مدن العدو، وكانت البوارج الحربية قادرة على دك الجزر الخاضعة لسيطرة اليابانيين من مسافات تبعد أميالاً في عرض البحر. باتت تكنولوجيا الحرب المعقدة توفر بعداً مادياً ونفسياً عن العدو.[2]

والأهم من كل شيء، كما يتابع شيري أن "إغراءات الحرب التكنولوجية لم تقابل، بالنسبة إلى الأمريكيين فقط، بالتحدي من خلال الاضطلاع بدور المستقبل بها". فالحرب "بعيداً هناك" كانت هي المقدمة. والعناصر التي جلبت النصر في الحرب العالمية واصلت عملها مع تحول أمريكا إلى تأسيس إمبراطوريتها المميزة على امتداد التخوم الكوكبية. توفر البعد المادي والنفسي ليس فقط بسبب التكنولوجيا، التي استهدفت إبادة العدو من ناحية وجعل الجنود الأمريكيين محصنين ضد القهر قدر الإمكان في ناحية أخرى، بل وجراء عزل التبرير الذاتي الإيديولوجي، بُعْد باقي العالم عن الحياة اليومية للأمريكيين العاديين؛ العزل الناجم عن غياب اهتمام باقي العالم غير القلق إزاء ثقافة قائمة على المعلومات ومساءلة وسائل الإعلام. من المؤكد أن الإمبراطورية، القوة، الحرب ووقائعها الفظة والقاسية تنطوي على الميزة المعزِّية المشتركة لكونها "بعيدة هناك"، مدارة بالتحكم عن بعد، بعيدة عنا –نحن الشعب– الذين نكون، مع ذلك، المستفيدين من تشغيلها.

تبقى العضويات المعرفية الإنسانية المعاد إحياؤها، الجنود الكونيون في فلم الجندي الكوني، صورة بيانية مناسبة لفلسفة الحرب التي ابتكرتها أمريكا. جرى تصميمها لتكون أدوات غير قابلة للتدمير ذات قدرة مخيفة، وجاهزة لـ"تنفيذ الأوامر في جميع الأوقات". وبعد كل مهمة يتم مسح ذاكرتها عبر حقنها بمادة كيميائية. غير أن هناك مشكلة كما هو الحال في جميع أفلام الخيال العلمي. تحديداً تتمثل المشكلة بـ "استعادة ذكريات عدوانية مؤلمة". فالجندي الطيب لوك دفيرو لا يلبث أن يبدأ بتخيل مشاهد أحداث وقعت في أزمان سابقة. آسيويان جاثمان في رعب شديد بين الرهائن الذين أنقذهم الجنود الكونيون يعيدان إحياء ذكريات القرية الفيتنامية؛ يتذكر الجندي الطيب الرقيب سكوت ويتعرف عليه بوصفه زميله الجندي الكوني. وسرعان ما يتضح أن سكوت يعاني من "ذكريات عدوانية مؤلمة" تخصه. يؤدي الوضع إلى جعلهما، كليهما، يتجمدان عند فكرتيهما الطاغيتين لحظة الموت: فكرة العودة إلى الوطن بالنسبة إلى لوك؛ وفكرة إنجاز المهمة وضمان الانصياع للأوامر بالنسبة إلى سكوت. تتعقد المشكلة جراء تطفل المراسلة الملحاحة المتلهفة لمعرفة المزيد عن الجنود الكونيين.

يجب أن تكون المراسِلة ومصورها قد اعتُقلا لمنعهما من الكلام عما اطّلعا عليه عن الجنود الكونيين. وحين يلتحق بهما الرقيب سكوت ــ مرة أخرى رجل وامرأة جاثمان أمامه، متهمان بالتجسس ـ يبادر، هذه المرة أيضاً، إلى إعدام الرجل بأعصاب باردة. يصاب العلماء هناك في عربة التحكم بالذهول والرعب. يقول الدكتور وود وورد: "للتو قتلنا رجلاً بريئاً. لا نستطيع تبرير الأمر وإخفاءه ـ ملزمون نحن أخلاقياً بالكشف عن حقيقة ما حصل". يرد عليه القائد العسكري منتقداً: البرنامج كله عملية

خفية ولابد من إبقائها سراً. ثمة عمليات خفية، حروب سرية، نفقات هائلة مصروفة على مثل هذه المشاريع وعلى تطوير سلسلة كاملة من تكنولوجيات الحرب بعيداً عن رادارات رصد الجمهور، ليست جميعاً مادة للخيال العلمي وحده. فهي لا تصلح موضوعات وحبكات للخيال العلمي إلا أنها تعكس الواقع، تشكل صدى له. إن فيتنام، تلك "الحرب الصغيرة القذرة" بلغة قصائد فلم شَعْر الغنائي، كانت أرضاً لعدد كبير من أمثلة عمليات النفاق الخفية. وبعدها كرّت السبحة وجاءت أحداث التشيلي، هدنوراس ونيكاراغوا. تبقى صيانة الإمبراطورية وإداراتها مثقلتين دائماً بعبء من الأسئلة عما يمكن تفسيره للناس هناك في الوطن. فما هو مسموح بأن يطلعوا عليه يتنافر بحدة مع السؤال الآخر الملح: إلى أي مدى هم يريدون أن يعرفوا عن الممارسات التي تتم باسمهم دون كشف كامل؟

مرةً أخرى، يقّدم الجندي الطيب لوك على إنقاذ المرأة، وينجحان في الهرب. تسأل المراسلة عما يريد لوك أن يفعله فيجيب: "انتهت فترة خدمتي. لا أريد سوى العودة إلى الوطن، ولكنني لا أستطيع إلى أن تصبحي آمنة". وهكذا فإنهما يحاولان معاً كشف سر هوية لوك الحقيقية ويراوغان المطاردة الصارمة التي يقودها الرقيب سكوت، الذي لا يزال مصمماً على استكمال مهمته المتمثلة بالتعامل مع الخونة وصولاً إلى كسب الحرب. عندما ينزل لوك في خان (موتيل) قذر يسمع صوت مذيع التلفزيون وهو يقول "نعيدكم الآن إلى برنامج نكسون وسنوات الحرب، الحلقة السابعة. يتابع لوك الرئيس نكسون وهو يقول: "سنُبْقي أمريكا الأمة الأقوى في العالم وسوف ندعم تلك القوة بدبلوماسية حازمة، دون اعتذارات، دون نَدَم". هذا الإعلان الواضح لرسالة

الإمبراطورية الأمريكية متبوعة بوَصْلة صوتية، نصف مسموعة لأنها مقطعة بالحركة المتواصلة، تشير إلى الإعفاء الموجه إلى نكسون لدى استقالته في أعقاب فضيحة ووتر غيت ومحاولات إدارته الرامية إلى إخفاء الحقيقة. من تلك النقطة وصاعداً، يتبع الفلم تقاليد صيغة (فورميولا) سباق السيارات، مع زحمة من المعارك، عمليات الإعدام والقتل، الصدامات وحركات الجرأة المبهرة. غير أن خَطَّهُ الروائي يبقى هو الآخر مجازاً ـ جواباً للسؤال الذي سبق أن ألمح إليه. لا تستطيع الشخصيات أن تنفض أيديها ببساطة مبتدئة مما حصل "بعيداً هناك"؛ فذروة الفلم تعيد العواقب إلى مسقط الرأس لتتكشف، حرفياً، أمام الأبوين دفيرو في بيتهما الريفي بلويزيانا. إلى لحظة النهاية الأخيرة، يبقى الرقيب سكوت كلي التصميم على إنجاز مهمته: يظل دائباً على حَقْنِ نفسه بمادة مقوية للعضلات ليكون أقوى، أكثر جبروتاً، غير قابل للتدمير، عديم الرحمة وشديد العزم في سعيه إلى كسب الحرب التي لا يستطيع تجنبها. وفي مشهد التطرف الأخير تكون الطريقة الوحيدة المتوفرة للوك من أجل التغلب على هذه القوة هي المسارعة إلى قذف جسد سكوت الشاحب في فوهة إحدى آلات الفَرْم وطحنه نُتَفاً.

في الصورة البيانية لفلم الجندي الكوني يكون دفيرو وسكوت، كلاهما، خارجين من رحم الإمبراطورية، ولكنهما يجسدان اثنين من بدائل الرد على ضغوطها وعواقبها. أحدهما ملتزم بمنطق وإملاءات كل ما يتطلبه الانتصار في حروب الحفاظ على الإمبراطورية، في حين يكون الآخر، لوك، مستعداً لأن ينفض يده، لأن ينأى بنفسه ويرسل الحرب إلى الجحيم، لمسح الواقع من ذاكرته حتى قبل أن يبادر عناصر التحكم به إلى مسح ذكرياته. في قلب النفس الأمريكية ثمة صدع يجري لحمه بنوع

من تفضيل النأي بالنفس، النزوع إلى النظر نحو الجهة الأخرى ـ النظر إلى الصورة الكبيرة لجملة المُثُل العظيمة ونُشّدان النسيان، تجاهل أو مجرد إنكار الوقائع المزعجة. وهو أمر يتمخض عن نوع من الاستعداد لقبول المنطق الذي يخوض الحروب ويدعوها دفاعاً عن النفس أو سلاماً، إضفاءً للسلم على عملية إيجاد الحضارة. ما كان صحيحاً عن أمريكا داخلياً في تاريخها ظل يميز تصرفاتها في الخارج. ليس الحلم الأمريكي إلا فكرة مُقْحَمة على التاريخ بمقدار ما هو نتاج أفرزه التاريخ. ليست أمريكا رواية بسيطة؛ إنها شديدة التركيب والتعقيد بل والتناقض ـ لا تعيش إلا في بحر من التوترات الحادة المجسدة لقوتي دفع المُثُل والواقع المتناوبتين. ونواميس المثيولوجيا الأمريكية موجودة لتصنيف أبشع الوقائع وأكثرها مرارة وتغليفها ببلسم النزعة المثالية تسويغاً للوسائل عن طريق الإلهاء بالأهداف النبيلة والنوايا الحسنة. يبقى خطاب الحياة الأمريكية مديحاً، إطراء خالصاً، طليقاً لجملة قيم الأمة ومثلها بصيغها النقية والكاملة. إن الواقع "بعيداً هناك" موجود لإعادة تشكيله، لجعله متناغماً مع الخرافة. غير أن هناك أوقاتاً تصبح فيها مقاربةُ الواقع هذه كذبة مكشوفة. يبقى الواقع مساراً قصصياً يمكن نسجه مع إبقاء المُثُل حيث هي وإبراز البراءة المصدومة إزاء الأحداث الواقعية المقيتة. فأمريكا ليست إلا أمة دائبة سرمدياً على فُقدان براءتها دون أن تهتدي إلى أي حافز إصلاحي. أما فرسان الإمبراطورية الأمريكية الطليعيون الحاليون فيلوذون مباشرةً بالفكرة التي تؤكد ما لدى أمريكا من براءة وما في طبيعة الرواية الأمريكية من طيبة فطرية متأصلة. ليس ثمة ما يشير إلى أي وعي بحقيقة أن مُثُل الجمهورية باتت بالية وانقضى تاريخ صلاحية بيعها منذ زمن بعيد ـ أن الميثولوجيا

الأمريكية نفسها هي التي أصبحت، آخر المطاف، بحاجة ماسة إلى التجديد وإبدالها بشيء أكثر تعزيزاً للحياة.

لننظر، مثلاً، إلى الاعتذاري الكندي المدافع عن الإمبريالية الأمريكية والأستاذ بجامعة هارفارد مايكل إيغناتييف الذي يرى الإمبراطورية الأمريكية "عبئاً" من نوعية جديدة: "إمبراطورية أمريكا ليست مثل إمبراطوريات الأزمان الغابرة، قائمة على المستعمرات، على الغزو وعلى عبء الإنسان الأبيض. لم نعد في حقبة شركة الفواكه المتحدة، حين كانت الشركات الأمريكية بحاجة إلى مشاة البحرية (المارينز) لضمان استثماراتها فيما وراء البحار. فإمبراطورية القرن الـ 21 اختراع جديد في حوليات علم السياسة، إمبراطورية مخففة (عيار خفيف)، هيمنة كوكبية عناوين شَرَفها متمثلة بالأسواق الحرة، بحقوق الإنسان وبالديمقراطية". والعبء الجديد يعني أن الولايات المتحدة هي "الدولة الوحيدة المضطلعة بمهام دركي العالم من خلال خمس قيادات عسكرية؛ المحتفظة بما يزيد على مليون رجل وامرأة تحت السلاح في أربع قارات؛ الناشرة فرقاً قتالية نقّالة متولية لمهام الرصد في جميع المحيطات، الضامنة لبقاء دول معينة من إسرائيل إلى كوريا الجنوبية؛ المحركة لدواليب التجارة والمبادلات الكوكبية؛ المالئة قلوب وعقول كوكب كامل بأحلامها ورغباتها"[3]. لذا فإن من شأن الإمبراطورية الآن أن تكون "لايت (Lite) مخففة"، غير أنها تبقى، مع ذلك، جندياً كونياً، وتفعل ما كانت سائر الإمبراطوريات -الطيبة- العتيقة تفعله على الدوام: تحتل أراضي أجنبية، تغتصب اقتصاداتها وتشل عقولها!

إضافةً إلى كونها "لايت"، تكون الإمبراطورية "خيِّرة" أيضاً. في مقالة تكرر اقتباسها كثيراً نشرتها مجلة فورين بوليسي، أعلن روبرت

كيغن، أحد كبار مساعدي الأساتذة في مؤسسة كارينيغي الوقفية للسلم الدولي أن "حقيقة دور أمريكا المهيمن في العالم معروفة لأكثرية المراقبين الدوليين الحصيفين". وهي أن "الهيمنة الكريمة التي تمارسها الولايات المتحدة خير بالنسبة إلى جزء كبير وواسع من سكان العالم". ثم يلمح إلى أن من شأن أي عالَم بدون هيمنة الولايات المتحدة سيكون أكثر عُنفاً، أكثر فوضوية، أقل ديمقراطية وراكداً اقتصادياً. وبعد ذلك يكشف الغطاء عن "المواصفات الفريدة لسيطرة أمريكا الكوكبية": رغم تمتعه بتفوق عسكري واقتصادي كاسح، اختار الشعب الأمريكي ألا "يضع تاج إمبراطورية العالم فوق جبينه"؛ بل فضل، بدلاً من ذلك، اعتماد "استراتيجية مخاطرة إبادة نووية لوطنه غير المهدد في الحالة العادية من أجل ردع الهجوم، النووي أو التقليدي، على أي حليف أوربي أو آسيوي". يضاف إلى ذلك أن "قيام أمريكا بوضع إشارة المساواة بين مصالح الآخرين ومصالحها هي كان عنوان الميزة الأكثر إثارة للسياسة الأمريكية على صعيدي الخارجية والدفاع. -قد يكون الأمريكيون ذاتيين، أنانيين، متعجرفين وقليلي المهارة أحياناً-، ولكن اعذورني" -excusez moi، يقول كيغن ويتساءل ساخراً:

مقارنة بمن؟ هل يمكن لأحد أن يصدق أن الفرنسيين كانوا، لو كانت فرنسا متمتعة بالقوة التي تملكها الولايات المتحدة الآن، سيكونون أقل غطرسة، أقل أنانية، وأقل نزوعاً إلى اقتراف الأخطاء؟ لا شيء في تاريخ فرنسا كقوة عظمى بل حتى كقوة متوسطة، يسوِّغ مثل هذا التفاؤل. كذلك لا يستطيع المرء بسهولة أن يتصور قوة على مستوى أمريكا أن يجري استخدامها بطريقة أكثر تنوراً من قبل الصين، ألمانيا، اليابان أو روسيا. حتى قادة الأقل ظلامية بين الإمبراطوريات، وهي

البريطانية، كانوا أكثر دموية ومدراء أقل دراية وقابلية للشؤون العالمية مقارنة بما أثبته حتى الآن الأمريكيون قليلو المهارة آخر المطاف. إذا كان لابد من وجود قوة عظمى وحيدة، فإن من الأفضل للعالم أن تكون تلك القوة هي الولايات المتحدة.[4]

إذن، ما الذي نستطيع توقعه في هذا العالم الرائع الخاضع للنفوذ الأمريكي اللطيف؟ بقدر غير قليل من الصراحة يقترح كيغن أن على أمريكا ألا تتردد في شهر سَيْفها الجبار وفَرْم أو ذَبْح كل ما ومن يقف في طريقها. مثل الوغد المعتوه في الجندي الكوني يجاهر باستهزائه بأوربا ونزعتها التعددية. إن أوربا التي حققت التكامل سلمياً وتعددياً، عبر المفاوضات ودون أي نزوع عسكري، قد انتقلت "إلى ما بعد السلطة لتدخل في عالم مكتف ذاتياً من القوانين والقواعد والمفاوضات والتعاون الدوليين"، مما أبعدها عن فهم واقعية بناء الإمبراطوريات الفظة. وفي تناقض صارخ مع "السلام الدائم، مصيراً لأوربا حسب رؤية كانط، يرى كيغن في الفردوس والقوة أن لا هم لأمريكا سوى ترويض عالم هوبزي (نسبة إلى هوبز) قائم على الفوضى حيث الحرب ضرورة. وهكذا فإن أمريكا مستعدة لنقل العنف إلى أي زاوية من زوايا العالم لا للحفاظ على الإمبراطورية فقط بل ولتوسيعها أيضاً.[5]

ما يقوم كل من إيغناتييف وكيغن بتلسيط الكثير من الضوء عليه هو الجهل الفاضح والصارخ بالتاريخ. مشيراً إلى إيغناتييف يقول سيدني لنز: "فقط شخص جاهل تماماً بتاريخ الولايات المتحدة، باندفاعها المجنون للتحكم بالنفط، بتوسيعها اللانهائي للقواعد العسكرية في طول العالم وعرضه، بهيمنتها على البلدان الأخرى من خلال سطوتها الاقتصادية الهائلة، بانتهاكاتها المتكررة لحقوق ملايين البشر الإنسانية،

على نحو مباشر أو من خلال حكومات عميلة، يستطيع أن يدلي بمثل هذا التصريح"[6]. أما أستاذ الصحافة المساعد بجامعة تكساس الأوستينية، روبرت ينسن، فيرى" الإمبريالية الخيِّرة" تجسيداً لـ"الهولوكست الأمريكي الثالث"، (إذ تمثل الأول والثاني بإبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) والعبودية، على التوالي)، الذي هو نتاج سياسة خارجية "همجية لا تعرف معنى الرحمة"[7]. غير أن أمراً بالغ الوضوح يفعل فعله في وجهات نظر إيغناتييف وكيغن؛ أمراً نجده أيضاً في مفهوم -الإمبريالية الليبرالية"[8] لدى بول بيرمن ومفهوم" الإمبريالية الديمقراطية"[9] لدى ستانلي كورتز، كما في كتابات سلسلة من رافعي راية الإمبراطورية الأمريكية اليمينيين واليساريين.[10] وليس ذلك الأمر سوى التجديد الحتموي لصياغة التاريخ في إطار الجندي الكوني. يجري تقديم التاريخ ـ تاريخ الديمقراطية، الليبرالية، الثقافات، الحضارات والقوى العظمى ـ على أنه قَدَر كوني: فتواريخ جميع الأمم والشعوب، جميع الدول والإمبراطوريات، تذوب في بوتقة الرواية الكونية للتاريخ الأمريكي وتبلغ ذروتها للتمخض عن إمبراطورية أمريكية كوكبية، خيِّرة. هذا هو الهدف الذي خُلق العالم من أجل تحقيقه. هذه هي الخلاصة المكثَّفة للتجارب الإنسانية كلها. هذا هو حاصل الجمع الإجمالي لأيام الإنسانية الغابرة. هذه هي النظرية التي يحاول فيليب بوبيت عرضها في دراسته الكبيرة:

ترس آخيل.[11] يرى الكتاب الذي يحمل عبارة "الحرب، السلم ومسار التاريخ" عنواناً فرعياً أن جميع الحروب في التواريخ كلها وسائر الدول المسالمة في العالم أَنْتَجَت " مسيرة تاريخية، تنتهي بدولة خاصة جداً: دولة بالغة القوة وديمقراطية وملتزمة بحقوق الإنسان ـ الولايات

المتحدة الأمريكية الكوكبية. إنها، إذن، القوة الوحيدة التي تملك لا الجبروت فقط بل وتتمتع بالحق التاريخي المؤيد لها ـ مما يجعلها قادرة على مهاجمة أي بلد تشاء مهاجمته. فهذه الضرورة التاريخية، هذا القَدَر الطبيعي والكوني الشامل، يضفي أيضاً على أمريكا، كما يقول بوبيت، الحق الذي يمكنها من التحرك استباقياً ضد أي أمة، ويضعها فوق القانون الدولي. هذه هي "النظرية الدستورية" الجديدة التي يريد بوبيت مسارعة باقي العالم إلى تبنيها.

بصيغتها الأكمل والأكثر صراحة، يقوم فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ والإنسان الأخير[12] بالتعبير عن هذه الأطروحة. فكل من إيغناتييف، كيغن، بوبيت وآخرين لا يفعلون ما هو أكثر من مجرد اقتباس ورقة واحدة من فوكوياما، النائب السابق لمدير جهاز التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية وأحد موقعي الوثيقة السياسية سيئة الصيت: "إعادة بناء دفاعات أمريكا: الاستراتيجية، القوات والموارد بالنسبة إلى القرن الجديد"، تلك الوثيقة التي قام بتجميعها مركز الأبحاث العائد للمحافظين الجدد المعروف: مشروع القرن الأمريكي الجديد.

بادر فوكوياما إلى تطوير أطروحته مباشرة بعد سقوط جدار برلين. فهو يقول إن انتهاء الحرب الباردة لا يعني انتهاء الشيوعية فقط، بل ويشير أيضاً إلى الانتصار الناجز لليبرالية أمريكا الاقتصادية والسياسية. ثم يضيف أن "الديمقراطية الليبرالية" الأمريكية هي "المحطة الأخيرة لتطور الجنس البشري الإيديولوجي"، "الصيغة النهائية لإدارة الإنسان"، بما يجعلها "نهاية التاريخ". منذ إعلان استقلال أمريكا وصاعداً، ثمة كان نوع من النزوع إلى الحكم الديمقراطي مما يبين أن

هناك "عملية داخلية صامتة وملَغَّزة دائبة على مواصلة تحركها" تحت قِشْرة صخب التاريخ وضجيجه، عملية تكاد أن تكون شبيهة بـ "اليد الخفية" للسوق. وهذا يوحي بأن:

هناك عملية عميقة وأساسية جارية على قدم وساق تُملي نمطاً تطورياً عاماً على جميع المجتمعات الإنسانية ـ باختصار، شيئاً شبيهاً بتاريخ كوني للبشر متجه نحو الديمقراطية الليبرالية. يتعذر إنكار وجود تعرجات صاعدة هابطة في مسار هذا التطور. إلا أن الإتيان على ذكر إخفاق الديمقراطية الليبرالية في أي بلد من البلدان، أو حتى في العالم كله بوصفه دليلاً على الضعف الشامل للديمقراطية، يكشف عن ضيق أفق فاضح. فالدورات والانقطاعات بحد ذاتها ليست متنافرة مع تاريخ يبقى توجهياً وكونياً، تماماً مثلما لا ينفي وجود الدورات الاقتصادية إمكانية النمو الاقتصادي طويل الأمد.[13]

إذن، على امتداد السنوات الثلاث مئة الماضية، ظلت سائر التواريخ، جميع الثقافات دائبة على التطور، بفعل قوة الطبيعة والتاريخ الحتموي وحدها، باتجاه هدف واحد: أن تصبح جزءاً لا يتجزأ من رواية أمريكية كونية.

لم يكن التاريخ سلسلة أحداث عمياء، بل كُلاً ذا معنى تطورت فيه الأفكار الإنسانية ذات العلاقة بطبيعة النظام السياسي والاجتماعي العادل ومارست أدوارها. وإذا كنا الآن في نقطة لا نستطيع أن نتصور منها عالماً مختلفاً جوهرياً عن عالمنا، عالماً لا ينطوي على أي طريقة ظاهرة أو واضحة سوف يمثل بها المستقبل تحسُّناً جذرياً في نظامنا الراهن، فإن علينا أيضاً أن نأخذ بنظر الاعتبار إمكانية أن يكون التاريخ نفسه ربما قد انتهى.[14]

وهكذا فإننا جميعاً متمتعون بالحد الأقصى الممكن إلى الأبد من الحرية، مما يجعل الأمر الواقع أفضل ما يمكن أن نتطلع إليه بأمل. والولايات المتحدة بمبادئها المتمثلة بـ"الحرية" و"الديمقراطية"، هي قمة التطور الإنساني ونحن جميعاً مدفوعون بقوة نحو الجمهورية العظمى. غير أن من شأن انتهاء التاريخ، لأنه "التاريخ" ـ أي تاريخ الثقافة غير الغربية التي عدها فوكاياما متوحشة ـ ينطوي على آراء جميع الآخرين، على منظومات قيمهم، على ثقافاتهم، على ما يمكن أن نطلق عليه اسم أنماط وجودهم الكلية، أن يعني أيضاً انتهاء وجود جميع الآخرين بالذات، زوال هوياتهم بالفعل. بات ممكناً، إذن، الإعلان الآن بصدق أن الآخرين، وهم طارئون تماماً على "التاريخ الكوني" الأمريكي، موتى في القبور: فـ"الأفكار الغريبة التي تخطر ببال أناس معينين في ألبانيا أو بوركينا فاسو غير ذات أهمية"، طالما أن ثقافتهم ليست جزءاً من "التراث الإيديولوجي المشترك للإنسانية". إن هؤلاء ليسوا بشراً على الإطلاق في الحقيقة.

يحدثنا فوكاياما عن أن المحاولات المبكرة لكتابة "تاريخ كوني" "بوشرت بالارتباط مع تأسيس المنهج العلمي في القرن السادس عشر". أدى هذا المنهج العلمي الذي ابتكره غاليلو، بيكون وديكارت إلى التأسيس لإمكانية مراكمة المعرفة من ناحية والسيطرة على الطبيعة من ناحية ثانية. ونجاح العلوم الطبيعية الحديثة هو الذي تمخض عن "فكرة التقدم الحديثة" ومكّن فرانسيس بيكون من تأكيد تفوق الحديث على القديم من منطلق اختراعات معينة مثل البوصلة، الطباعة والبارود"ـ أي منها لم يكن، بالمناسبة اختراعاً غربياً بل نتاج تطور معارف مراكمة في الشرق في سياقات ثقافية مختلفة كلياً. ومع ذلك فإن إمكانية امتلاك العلوم

الطبيعية لم تكن – سمة عامة لسائر المجتمعات. بل تعين ابتكارها في محطة معينة من محطات التاريخ". ما إن بات هذا المنهج العلمي مبتكراً، "حتى حصل تغير نوعي في العلاقة بين المعرفة العلمية والسيرورة التاريخية"؛ لقد وفر المنهج العلمي "آلية " لتوجيه التاريخ عبر ابتكار "نوع من التقسيم الجذري، غير الدَّوْري لزمن التاريخ إلى فترتي قبل وبعد". من تلك اللحظة أصبح استخدام آلية التوجيه هذه لتفسير جميع التطورات التاريخية ممكناً. وما هي العناصر الأساسية للآلية التي أطلقها العلم الحديث؟ هاكم تفسير فوكوياما للأمر:

أولى طرق قيام العلوم الطبيعية الحديثة بإحداث انعطاف تاريخي، توجيهي من ناحية وكوني شامل من ناحية ثانية، تمر عبر المنافسة العسكرية. فكونية العلم توفر الأساس اللازم لتوحيد البشر كوكبياً في المقام الأول جراء طغيان الحرب والصراع على النظام الدولي. إن العلم الطبيعي الحديث يضفي ميزة عسكرية حاسمة على تلك المجتمعات التي تستطيع تطوير، إنتاج ونشر التكنولوجيا بالقَدْر الأكبر من الكفاءة، والميزة النسبية التي توفرها التكنولوجيا، تتعاظم مع تسارع وتيرة التغير التكنولوجي. رماح الزولو لم تَرْقَ إلى مستوى البنادق البريطانية، بصرف النظر عن مدى شجاعة المقاتلين الأفراد؛ امتلاك العلم كان السبب الذي مكّن أوربا من اجتياح الجزء الأكبر مما يُعرف الآن باسم العالم الثالث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وانتشار ذلك العلم من أوربا صار الآن يسمح للعالم الثالث باسترجاع بعض سيادته في القرن العشرين. تبقى إمكانية الحرب قوة عظيمة لعَقْلَنة المجتمع، ولخلق بُنى اجتماعية موحدة عبر الثقافات. أي دولة تأمل في الحفاظ على استقلالها السياسي ملزمة بتبني تكنولوجيات أعدائها

ومنافسيها. يضاف إلى ذلك، على أي حال، أن خطر الحرب يجبر الدول على إعادة بناء أنظمتها الاجتماعية وفقاً لمعايير أكثر إفضاء إلى إنتاج التكنولوجيا ونشرها.[15]

وهكذا فإن رواية أمريكا الأم إن هي إلا أحد نتاجات عضلاتها العسكرية المشحونة بالعلوم والتكنولوجيا، أحد نتاجات قدرتها على أداء وظائف الجندي الكوني. ولكن هل ثمة أي أسباب أخرى مسؤولة عن هيمنة الولايات المتحدة الكوكبية؟ يقول فوكوياما إن انتصار فكرة أمريكا يتجلى في "العلاقة التي لا تقبل الجدل بين التنمية الاقتصادية والديمقراطية الليبرالية" (لا علاقة لكل من الاستعمار والبنية الاقتصادية العالمية بالأمر، بطبيعة الحال) وانتشار النزعة الاستهلاكية في العالم. أما القوة التي تولت مهمة دفع عملية التاريخ إلى أمام فلم تكن متمثلة بسعي أمريكا إلى السلطة والأرض بل بحاجة الفرد إلى فكرة "الاعتراف (ثيموس)، أو "التماس الاعتراف لدى الآخرين" الأفلاطونية. أو "هَوَس الاعتراف (الميغالوثيما)، الرغبة في الحصول على الاعتراف بالتفوق على الآخرين جميعاً، بعبارة أكثر دقة. وهذه الرغبة يتم إشباعها بالنزعة الاستهلاكية الأمريكية، التي لا تكتفي بتزويد الفرد الحر والمحترم بكل ما هو بحاجة إليه من "اعتراف (ثيموس)"، بل وتضفي أيضاً هالات التبجيل على "هَوَس الاعتراف (الميغالوثيما)" وتوجهه نحو فعاليات غير مؤذية مثل التلهي بسندات باطلة أو الطيران الشراعي في كاليفورنيا، بفضل وجود نوع من التلاحم السعيد بين مسيحية (يمينية) من جهة، علوم وتكنولوجيا عسكرية من جهة ثانية، "ليبرالية ديمقراطية" من جهة ثالثة، وإمبريالية لطيفة من جهة رابعة، في المقام الأول. "بصرف النظر عن القبائل الزائلة بسرعة في أدغال البرازيل وبابوا

غينيا الجديدة"، نرى أن الإنسانية كلها مترابطة عبر "لاحم النزعة الاستهلاكية (الأمريكية) الحديثة الكوني":

إن المجتمعات التي حاولت مقاومة هذه العملية التوحيدية من توكوغاوا اليابان والباب العالي، إلى الاتحاد السوفيتي، جمهورية الصين الشعبية، بورما، وإيران، نجحت في خوض معارك خلفية، نكوصية لم تدم أكثر من جيل أو اثنين. وأولئك الذين لم يُهزموا بالتكنولوجيا العسكرية المتفوقة جرى إغواؤهم بالعالم المادي المبهر الذي نجحت العلوم الطبيعية الحديثة في إيجاده. ومع أن جميع البلدان ليست مؤهلة لأن تصبح مجتمعات استهلاكية في المستقبل القريب، فليس ثمة أي مجتمع في العالم لا يتبنى الهدف نفسه.[16]

وهكذا فإن فوكوياما، وآخرين من مروجي الإمبراطورية الأمريكية، يعرضون على باقي العالم ثلاثة خيارات واضحة وضوح الشمس: الزوال، دونما أثر زوالاً كاملاً مع الثقافة والقيم، من التاريخ والمستقبل؛ الاستسلام للتكنولوجيا العسكرية الأميركية والتحول إلى مستعمرة عائدة للإمبراطورية الخيِّرة؛ أو المبادرة إلى اعتناق العقيدة الاستهلاكية الأمريكية بمجملها فالتحول إلى مجرد رقم، شيفرة أو رمز. غير أن فوكوياما لا يكتفي بوضع حد للتاريخ، الذي يستخدمه أحياناً مرادفاً للتقدم، من منطلق الجبروت العسكري وانتشار النزعة الاستهلاكية، بل ويروز أيضاً جملة الإسهامات الحاصلة في التاريخ العالمي من منطلق مشاركة الناس في المجتمع الاستهلاكي. يقال، مثلاً، إن لليابان مساهمة ذات شأن "في تاريخ العالم جراء حَذْوها حذو الولايات المتحدة على صعيد خَلْق ثقافة استهلاكية كونية حقاً، هي رمز الدولة الكونية المتجانسة من ناحية وركيزة هذه الدولة من ناحية ثانية". وهكذا فإن أي

دولة لا تصبح "متجانسة" على قاعدة ثقافة واحدة، طموحات قومية، دين أو نظرة عالمية، بل على أساس الثقافة الاستهلاكية الكونية الأمريكية.

هل ثمة أي مَهْرَب من تجانس الإمبراطورية الأمريكية؟ يرى فوكوياما أن رواية الجندي الكوني الأمريكي تتصدى لثلاث "إيديولوجيات منافسة": القومية، الثقافة والأصولية الدينية. يجري استبعاد القومية بوصفها غير ذات شأن لأن من الممكن "تحديثها"، إعادة صياغتها في إطار الرواية الأمريكية الأم. أما الثقافة، بوصفها شكلاً من أشكال مقاومة قيم أمريكا ونزعتها الاستهلاكية، فتنطوي على قَدْر أكبر من التهديد. وارتباط الثقافة بالدين هو الذي يجعلها صيغة عنيدة من صيغ مقاومة انتشار الإمبريالية الأمريكية. غير أن الخطر الحقيقي الذي يتهدد الهيمنة الأمريكية ينبع من الأصولية عموماً والأصولية الإسلامية خصوصاً. ومع ذلك ليس للأصولية الإسلامية، رغم نجاحها في تحقيق بعض الانتصارات، أي مستقبل ذي شأن. بالنسبة إلى فوكوياما، كما بالنسبة إلى غيره من حَمَلة راية الإمبريالية الأمريكية تماماً، تبقى صيغة الإسلام الوحيدة الموجودة هي "الأصولية الإسلامية"، التي يجري عَدُّها مكافئة لمجمل تاريخ الإسلام من أوله إلى آخره. وهو يجادل أن تاريخ الإسلام وحضارته لن يكون لهما أي حظ، عند الامتحان الحقيقي، في التصدي لهوليوود، للتلفزيون الأمريكي ولفنون صناعة النجوم والشهرة. يضاف إلى ذلك أن البلدان الإسلامية سوف تضطر لدى "نضوب آبار النفط" إلى أن تتدبر أمورها "وَحْدَها"، سوف تواجه خياراً شديد الوضوح بين الإسلام والنزعة الاستهلاكية الحديثة. أما الحقيقة الأولية التي تؤكد أن البلدان الغنية نفطياً تعيش من الآن في أحضان الثقافة الاستهلاكية، في حين تفتقر البلدان غير النفطية إلى المال، وإلى خيار

شراء ثقافة الاستهلاك بالتالي، فلا يتنبّه إليها فوكوياما. كما إلى حقيقة كون الطرفين، البلدان النفطية ونظيرتها غير النفطية، قد أقدما سلفاً على اختيار "الإسلام" بصيغها الحديثة المختلفة، الفاسدة إلى حدود معينة.

يُصر فوكوياما على رفع تهنئة الذات إلى مرتبة نوع من اللاهوت، الميثولوجيا أو الدين الذي يفرِّخ فلسفة عقلانية قادرة على إلحاق الهزيمة بسائر الفلسفات ونظرة عالمية قابلة للاعتماد في الحياة. ليست أطروحته، فكرة إمبراطورية أمريكية بالذات في الحقيقة، إلا صيغة من صيغ الأصولية المَرَضية. وكما يلاحظ ستيوارت سيم فإن أصداء اليمين المسيحي في كتابات فوكوياما واضحة ومميزة: "بروح أصولية حقاً" يتطلع فوكوياما: إلى "إضفاء التجانس على الجنس البشري". ما من أصولي ديني كان قادراً على طرح المسألة بصيغة أفضل: وداعاً للاختلاف! وداعاً للمعارضة! أهلاً بالامتثال وسَهْلاً!" كان من شأن المرء أن يتوقع، كما يرى سيم، من فوكاياما أن يبادر، بعد 9/11، إلى التعبير عن بعض الشكوك. غير أن الرجل بقي صامداً بعناد مصراً على تأكيد "الزعم الأصولي النموذجي نفسه: الخصوم لم يروا النور بعد، ببساطة. والرَّد الأصولي النموذجي: لن نستسلم، سوف ننتصر ونسود. إنه مزاج عصي على الانتكاس في ما يبدو"[17].

كان فرنسيس فوكوياما أحد طلاب ساموبل هنتنغتون، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد. بعد كتاب فوكوياما مباشرة، نشر هنتنغتون مقالته الشهيرة "صدام الحضارات" "في مجلة فورين أفيرز المتنفذة، المؤثرة، التي كان فريد زكريا، مدير تحريرها، طالباً آخر من طلاب الأستاذ الهارافاردي. رأى هنتنغتون أن نزاعات المستقبل لن تكون

مستندة إلى الإيديولوجيا أو الاقتصاد بل إلى الثقافة: فـ "خطوط الصدع بين الحضارات ستكون خطوط جبهات القتال في المستقبل". ثمة عدد من مثل "خطوط الصدع" هذه، غير أن الأبرز والأهم هو الخط الفاصل في أوربا الذي يفصل أوربا الشرقية أساساً ومعها البلقان عن العالم الإسلامي. الناس في الجانب الأوربي الشرقي يتقاسمون التجربة المشتركة للتاريخ الأوربي وهم عموماً أبناء النهضة، الإصلاح (الديني)، التنوير، الثورة الفرنسية والثورة الصناعية. أما على الطرف المقابل فلدينا، برأي هنتنغتون، قوم "كان، تاريخياً، ينتمي إلى الإمبراطوريتين العثمانية والقيصرية ولم يتأثر إلا قليلاً بالأحداث الكبرى والحاسمة التي هيكلت الأجزاء الباقية من أوربا؛ وهو عموماً أقل تقدماً على الصعيد الاقتصادي؛ واحتمال قيامه بتطوير أنظمة سياسية ديمقراطية مستقرة أقل ورواداً على ما يبدو"[18]. هذا، بالطبع، هو الخط التاريخي الفاصل حيث تنتهي الحضارة كما نعرفها وتبدأ البراري الموحشة العائدة للثقافات الأخرى؛ وحيث سيتم خوض المعركة الأخيرة دفاعاً عن الإمبراطورية. إن أطروحة "صدام الحضارات" تكررت وتأكدت عدداً من المرات؛ وكثيراً جداً ما جرى اختزالها إلى صدام بين الغرب والإسلام. غير أن اهتمام هنتنغتون في الصياغة الأصلية للأطروحة لم يكن محصوراً بـ"التخوم الدامية" للإسلام؛ إذ كان قلقاً إزاء احتمال انتفاض العالم غير الغربي كله على الولايات المتحدة. كتب هنتنغتون يقول إن "الحضارات الكونفوشيوسية، اليابانية، الإسلامية، الهندوسية، السلافية ـ الأرثوذكسية، الأمريكية اللاتينية وربما الأفريقية، دائبة على إعادة اكتشاف هوياتها الحضارية و"لديها الرغبة، الإرادة والموارد اللازمة لصب العالم في قوالب غير غربي" (لا قَدَّرَ الله!). وقد استثنى "الترابط

الكونفوشيوسي ـ الإسلامي" بوصفه الأشد خطراً إذ يضم "دولاً مسلَّحة"ـ وكأن أمريكا دولة بلا سلاح! ـ متلهفة للانقضاض على الغرب المتجانس بقيادة الولايات المتحدة. ولإحباط الأخطار الكامنة، أفتى هنتنغتون بأن على الغرب، أي الولايات المتحدة، أن يبادر إلى" الحد من تنامي القوة العسكرية للدول الكونفوشيوسية والإسلامية" (مواصلة السير في الطريق الإمبريالية)؛ "استغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الكونفوشيوسية والإسلامية" (اعتماد سياسة: فرق تسدْ!)؛"دَعْم الجماعات المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى" (تشجيع التمرد)؛ و"تقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم الغربية المشروعة" (تقوية هيمنة الغرب على كوكب الأرض)[19].

في الصياغة الأبلغ لأطروحته، أي في كتاب صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، يقدم هنتنغتون قائمة طويلة من صراعات خطوط الصدع التي نشبت على "تخوم ممتدة عبر أوراسيا وأفريقيا فاصلة بين مسلمين وغير مسلمين": البوسنة، كوسوفو، قبرص، الشيشان وجنوب السودان، مثلاً. غير أنه يضطر للتسليم بأن صدام الحضارات الحقيقي هو "بين الغرب وباقي العالم على المستوى الكُلّي والكوكبي من السياسة العالمية" على الرغم من أنه "بين المسلمين والآخرين على المستوى الجزئي أو المحلي"[20]. والقضايا في هذا الصدام هي قضايا "كلاسيكية تخص السياسة الدولية، مثل – النفوذ النسبي في تحديد شكل التطور الكوكبي وتحركات منظمات دولية كوكبية معينة مثل الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي والنبك الدولي"؛ "القوة العسكرية النسبية المتجلية في الشجارات حول حظر الانتشار ومراقبة الأسلحة كما في السباق على التسلح"؛ و"القوة الاقتصادية والرخاء" المتجليين في

الخلافات بشأن التجارة، الاستثمار وغيرهما"[21]. بتعبير آخر، يبقى الصراع بين "الغرب وباقي العالم" حول قضايا العدل والاستغلال قضايا الإمبريالية الأمريكية الجوهرية.

خلافاً لفوكوياما، بشوفينيته المحافظة الجديدة ذات البُعد الواحد، يكون هنتنغتون شخصاً أكثر تعقيداً وتركيباً بما لا يقاس. بادئ ذي بدء نجده ديمقراطياً من الطراز القديم يعد نفسه "ابناً لنيبور". وراينهولد نيبور هذا، وهو أحد كبار اللاهوتيين البروتستانت الأمريكيين الرواد، كان اشتراكياً نشيطاً أوائل ثلاثينيات القرن العشرين. ثم بدأ، بعد الحرب العالمية الثانية، مبشراً بالقيم البروتستانتية التقليدية، ناسباً إياها إلى المجتمع الأمريكي في صيغة "واقعية محافظة". وكتابه طبيعة الإنسان وقَدَره: تفسير مسيحي[22] كان عميق التأثير في اللاهوت الأمريكي، دافعاً عدداً كبيراً من خبراء العلاقات الدولية إلى عَدِّه أبا الفكر السياسي الأمريكي المؤسس. وبوصفه من أتباع الطائفة الأسقفية نجد هنتنغتون منجذباً إلى مبادرة نيبور القائمة على "الجمع الإلزامي بين الأخلاق والواقعية العملية" الذي يحدد إطار أفكاره المحافظة الخاصة.[23] ومثل نيبور يتمتع هنتنغتون بقناعات أخلاقية مسيحية تجعله، مرة بعد أخرى، يدين الإمبريالية وتقديم التراث والتاريخ الأمريكيين على أنهما روايتين كونيتين. وقد أكد هنتنغتون أن أمريكا قامت بتأبيد الإمبريالية العارية منذ خمسينيات القرن العشرين؛ واتبعت سياسة مدروسة قائمة على خَلْق عالم أحادي القطب بعد سقوط جدار برلين. لقد تصرفت مثل أي "قوة عظمى مارقة"، مُجْبِرة باقي العالم على الإذعان لمطالبها.[24] يضاف إلى ذلك، أنه يرفض فكرة أن الغَرب، أمريكا في الحقيقة، يمثل "حضارة كونية". فجملة "الفرضيات" القيم

والعقائد المتبناة حالياً من جانب كثيرين في الحضارة الغربية، لا تمثل ما هو أكثر من "ثقافة دافوس": إنها ثقافة رجال الأعمال، أرباب المصارف والموظفين الحكوميين الذين يحتشدون كل سنة في بلدة دافوس السويسرية لحضور المنبر الاقتصادي العالمي. وعلى الرغم أن جماعة دافوس "تتحكم بجل المؤسسات الدولية، بعدد كبير من حكومات العالم وبالجزء الأكبر من قُدرات العالم الاقتصادية والعسكرية"، فإن كثيرين لا يشاطرونها ثقافتها: إنها موجودة فقط على المستوى النخبوي.[25] إذن: "ما هو كوني بنظر الغرب إمبريالي برأي الآخرين"[26]؛ حقاً، إن الإمبريالية نتاج منطقي لفكرة أن الثقافة الأمريكية كونية بالذات.

غير أن موقف هنتنغتون واضح العداء للإمبريالية لا يعني أنه ضد الإمبراطورية الأمريكية. فاهتمامه الرئيسي منصب على الحفاظ على الهوية البروتستانتية المسيحية للإمبراطورية. ومن هنا امتعاضه الشديد من التعددية الثقافية وإصراره على أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تكون وطناً لحضارات كثيرة. على أمريكا، كي تكون أمريكا، أن تقوم على نواة ثقافية بروتستانية. وكما يجادل في كتابه (الجديد) من نحن؟: التحدي الذي تواجهه الهوية القومية الأمريكية، فإن الأمريكيين اللاتينيين الكاثوليك، المتزايدين بسرعة، يشكّلون تهديداً للأمة: حقاً، ليس اختلاط الأعراق والثقافات في أمريكا بالذات إلا طريقاً تفضي إلى الانحلال القومي والأخلاقي.[27] وقلق هنتنغتون إزاء اللاغرب، وقد تم التعبير عنه بكثير من الوضوح في صدام الحضارات، إن هو من حيث الجوهر إلا الخوف من تعرُّض الأخلاق البروتستانتية التي تواجه تحدياً ديمغرافياً للاجتياح من قبل لاغرب منبعث ومتعدد الحضارات، دائب على التوسع. يقول ليونغ يو: "ما يبدو رفضاً صريحاً ومباشراً للنزعة

الكونية إن هو إلا أحد سبل الحيلولة دون ضياع فرادة الثقافة الغربية". ويضيف يو أن قلق هنتنغتون يمكن حَصْره بعبارة واحدة: إلغاء الصفة الغربية (de-westernization)، مع كل الخوف المصاحب لفقدان الأخلاق البروتستانتية[28] وهكذا فإن "الديمقراطي من الطراز القديم" يتكشف عن استعماري عتيق الطراز حريص على الدفاع عن كل من الذوبان في البوتقة من ناحية والتمايز من ناحية ثانية حفاظاً على علاقات القوة والنفوذ المنتمية إلى الطراز القديم.

أما طالب هنتنغتون الآخر، فريد زكريا، رئيس تحرير الطبعة الدولية لمجلة نيوزويك، فيخفي رغائبه الاستعمارية خلف تناقض مشابه. ففي كتابه شبه المبتذل مستقبل الحرية: الديمقراطية اللاليبرالية في الداخل والخارج،[29] يفترض زكريا وجود نوعين من الديمقراطية: نوع ليبرالي موجود في أمريكا، وآخر لاليبرالي هو من نصيب باقي العالم. تكون الديمقراطية الليبرالية مستندة إلى التجارة الحرة الليبرالية الجديدة والأسواق الحرة مئة بالمئة. ليست "الديمقراطية" و"الأسواق" إلا الشيء نفسه أساساً، بعبارة أخرى. وأمريكا تمثل الديمقراطية المثالية والنموذجية بسبب "واقعيتها الدولتية"، بمعنى استخدامها لقوتها الفظة من أجل توسيع أسواقها وزيادة نفوذ إمبراطوريتها. لا يخجل زكريا من تمجيد جبروت أمريكا العسكري من ناحية وماضيها التوسعي الشنيع من ناحية ثانية دونما أي أثر للسخرية، أو أي هواجس أخلاقية في الحقيقة إزاء الإمبريالية أو الكلفة البشرية والاجتماعية لاستخدام القوة الفظة. ليس هذا إلا أحد تجليات الموقف الاعتذاري التبريري القائم على الدفاع عن الإمبراطورية.

وكما يقول بنيامين باربر فإن – الخلط بين إشاعة الديمقراطية وتعميم الليبرالية الاقتصادية يستهدف الدمج بين نشر الحرية ونشر عالَم الماك ـ ذلك المجمَّع المُغْري للنزعة التجارية الأمريكية، للنزعة الاستهلاكية الأمريكية، وللأصناف الأمريكية.... الذي ظل مسيطراً على عملية العولمة؛ إن "روح ديزني" ليست مرادفة لـ "أخلاق التحرر"؛ وكلمة "مواطنين" لا تعني "مستهلكين" دون زيادة أو نقصان.[30] فإيجاد المستهلكين للأسواق الأمريكية؛ استباحة بلدان الأمم الأخرى لوضعها في تصرف الشركات الأمريكية، لا يرقى إلى مستوى استحداث الديمقراطية:

تتولى الخصخصة المهمة الإيديولوجية لاقتصاد السوق الكوكبي داخل الدول القومية، مميزة المصالح الخاصة للشركات والبنوك وإضفاء صفة اللاشرعية على مرافق المجتمع العامة. فالإدارة القومية لم تعد الآن سوى أداة مؤهلة عاملة لدى القطاع الخاص أكثر منها جمعية مشاركة للقطاع العام. وتحت هذا القناع يجري تحويل الحكم إلى وسيلة ذات جدوى بأيدي الشركات الكوكبية، البنوك العالمية والأسواق الدولية في عدد من المنظمات الدولية مثل منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي ـ وهي منظمات سياسية ديمقراطية اسمياً أسستها حكومات ذوات سيادة، ولكنها عملياً خادمة لمصالح اقتصادية كوكبية دائبة على تقويض كل من السيادة القومية والديمقراطية. إن الخصخصة لا تؤدي إلى جعل السلطة لامركزية، ليست العملية تخفيفاً لقبضة المركز. لعلها، بالأحرى نقل للسلطة المنشورة من الأعلى إلى الأسفل بما يجعلها علنية، مسؤولة وشفافة بالنسبة إلى القطاع الخاص المتحكم إلا أنها باتت الآن منحرفة وغير خاضعة للمحاسبة. على

الصعيد العملي تؤدي الخصخصة إلى التخلي عن السلطة العامة وتركها لنخب خاصة بعيدة عن متناول الفحص والمراقبة. وباسم التحرير تقوم الخصخصة بتدمير الديمقراطية عبر الإجهاز على ما هو خير للجمهور (حكم الجمهور) الذي يجري تأسيس الجمهوريات الديمقراطية باسمه في المقام الأول.[31]

يجادل باربر أن من شأن وضع إشارة المساواة بين الديمقراطية والنزعة الاستهلاكية أن يتمخض عن خطأين قاتلين. يفضي، أولاً، إلى سوء تمثيل الخيار الطوعي، الذي لابد له، تحديداً، من أن يتم بحرية بعيداً عن أي قيود. ولكن ما مدى تمتع الناس الذين ينفقون أموالهم في بلدان خاضعة لنفوذ الإمبراطورية بالحرية البادية ظاهرياً؟ ليس ثمة ما هو طوعي في مجتمع تتم فيه فبركة الطلبات، الحاجات والرغبات على نحو مصطنع. "تكون الخيارات الحرة خاضعة لتأثيرات التسويق، الترويج، الإعلان والتغليف التي هي جميعاً (كما تؤكد المليارات المصروفة في هذه القطاعات) هادفة إلى قَوْلَبة، تعديل، تحريف بل وحتى إجبار الخيار على التوجه نحو ما يريد المنتجون بيعه بدلاً مما يحتاج المستهلكون إلى شرائه".[32] وهكذا فإن باربر يسأل عما إذا كان المستهلكون الأمريكيون قد تصرفوا طوعياً حين اندفعوا تحت تأثير توصيات وزارة الأمن الداخلي في أثناء عملية الحشد استعداداً لحرب العراق لشراء منتجات غريبة مثل أشرطة اللصق، الشراشف البلاستيكية وأقنعة الغاز، أم أن أموراً أخرى كانت تحرك استهلاكهم. ويقوم الأمر (أمر وضع إشارة المساواة بين الديمقراطية والنزعة الاستهلاكية)، ثانياً، على سوء فهم الفرق الحاسم بين الخيارين العام والخاص. إن الرأسمالية لا تصنع سِلَعاً تلبي حاجات الناس العاديين، ولم يسبق لها أن

فعلت قط. فرأس المال الكوكبي متركز على تصنيع حاجات محددة لضمان بيع البضائع الفائضة التي لا يحتاج إليها أو ربما لا يستخدمها أحد. فـ "الحاجة" إلى شريط اللصق تم تفريخه تحت تأثير الزعم الملتبس الذي أطلقته وزارة الأمن الداخلي (وهو زعم تملصت منه لاحقاً) قائلة إن بوسع الناس اتقاء الهجمات الكيميائية والبيولوجية عبر إحكام غلق النوافذ. وما ينطوي على قدر أكبر من الالتباس هو مدى الحاجة إلى عربات الهمفي، ماء التصميم وأفران الدي. في. دي. DVD، و"حتى أقل مروجي الرأسمالية الاستهلاكية نزوعاً إلى الشك قد يُقرّون بأن المليارات المصروفة على تسويق أشياء تخص أطفالاً تتراوح أعمارهم بين السنة الواحدة والست سنوات تشير إلى شيء آخر غير حرية السوق الخالصة أو خيار المستهلك النقي"[33]. حتى حين نفترض أن الناس يختارون بحرية ما يريدونه ويحتاجون إليه فعلاً، فإن اختيار المستهلك لا يعدو كونه اختياراً خاصاً. وجملة الاختيارات الخاصة هذه، مصطنعة كانت أم لا، ليست بدائل للاختيارات العامة ولا تؤثر في الحصائل العامة. لا يمكن اختزال الإدارة الديمقراطية إلى خيارات خاصة، لأنها ليست، أساساً، إلا عن الاختيار العام: "عن معالجة جملة العواقب العامة والاجتماعية للخيار والسلوك الخاصين". ليس ثمة، إذن،أي علاقة حقيقية للديمقراطية بالنزعة الاستهلاكية، بل مع السوق الحرة المزعومة. إن وظيفة الديمقراطية هي إنتاج مواطنين أصحاب ضمائر حية وإدارة مسؤولة قابلة للمحاسبة. أما ربط الديمقراطية بالتجارة الحرة والأسواق السائبة فليس إلا نهجاً من مناهج توسيع الإمبراطورية.

يقوم هذا النهج، كما يرى روبرت ينسن، على افتراضين عميقين متجذرين في الميثولوجيا الأمريكية. لا يقف الأمر، أولاً، عند كون

رأسمالية السوق الأمريكية مجرد وحيدة في العالم كله، بل يتعداه إلى كونها أيضاً النظام الاقتصادي الوحيد المتناسب ولو من بعيد مع الديمقراطية. باستثناء بعض التعطيل المؤقت من جانب النقابات يبقى هذا النظام "نظاماً متناغماً يعمل في ظله مالكون خيِّرون ومدراء مجتهدون بنكران ذات لخدمة الزبائن والعمال". تبقى أمريكا، ثانياً، البلد الوحيد على هذا الكوكب الذي يضفي قيمة على الديمقراطية والحرية، وقد ظل حريصاً، عبر التاريخ وفي الأزمنة الحديثة، على الالتزام بهما ـ ما من بلد آخر يثمن الحرية والديمقراطية مثلما تفعل أمريكا! جميع الدول الأخرى في العالم تتصرف من منطلق الأنانية الخالصة في حين "تندفع" أمريكا "إلى الأمام لأداء رسالة خير".[34] غير أن مفهوم الإمبراطورية الخيّرة يبدو متناقضاً إذ أن:

الإمبراطورية التي يسلِّم بها المحكومون روتينياً ليست استثناء. هذا هو ما نطلق عليه اسم "هيمنة"، وهي كلمة تشي بأن السلطة تضع "قواعد اللعبة" التي يلعب الآخرون روتينياً بموجبها. قد يبادر هؤلاء الآخرون أيضاً إلى الموافقة على القواعد فتصبح الهيمنة مشروعة جزئياً. إلا أن أساس الهيمنة يبقى ميالاً لأن يكون قبولاً بالأمر الواقع للأشياء "كما هي". ومن ثم فإن تحركات الناس اليومية تساعد على إنتاج السيطرة دونما حاجة إلى كثير من التفكير. إن الدولار الأمريكي، مثلاً، هو النقد الاحتياطي العالمي، المستقر، الآمن، بما يدفع الأجانب، روتينياً، إلى الاستثمار في الاقتصاد الأمريكي، داعمين المستهلكين الأمريكيين ومسددين، على نحو غير مباشر، قيمة فواتير الجيش الأمريكي، دون أن يكونوا متنبهين ولو قليلاً إلى حقيقة ما يفعلونه. فالأجانب يرون أن هذه هي الطريقة الرئيسية التي يعمل بموجبها الاقتصاد الكوكبي، بما يجعلها

أيضاً الطريقة التي تمكنهم من تحقيق الأرباح. نجدهم موافقين عملياً على الرغم من غمغماتهم المتذمرة بين الحين والآخر.[35]

أو أن عبقرية النظام السياسي الأمريكي على امتداد قرنين من الزمن تكمن، كما قال غور فيدال "في تمكين الأغنياء من سرقة الفقراء وجعلهم يعتقدون بأنهم صوتوا لذلك".[36] والفقراء هنا ليسوا فقط فقراء أمريكا بل هم فقراء باقي العالم أيضاً، أولئك الذين هم ضحايا نهب وسلب إمبراطورية مهيمنة.

إن رواية الإمبراطورية الكوكبية التي يروِّجها فرسانُها إن هي إلا رواية صُوانية (مونوليثية). تتحرك عبر منظومة متماسكة من الاقتراحات المدعومة من جميع الهيئات الكوكبية الرئيسية، وخصوصاً صندوق النقد الدولي، من خلال شعار بسيط يقول: "قياس واحد يناسب الجميع!": تتمثل حاجة العالم بإشاعة الديمقراطية جنباً إلى جنب مع إشاعة الخصخصة ولبرلة التجارة. هذه هي المعايير العملية التي يُطلب من المحكومين أن يوافقوا عليها روتينياً. غير أن ما يتمخض عنه هذا الشعار، كما تقول آمي تشوا بكثير من الحصافة في كتاب: عالم يحترق!،[37] في عالم الواقع، حيث ينطوي التاريخ والسياق على معنى، هو نشر عدم الاستقرار. في زحمة تعقيدات عالم ما بعد الاستعمار ليست الدول والأمم إلا كيانات مصطنعة أوجَدَتْها إمبراطوريات سابقة وهي تعكس جميع التوترات الداخلية لقوى إمبريالية متنافسة. فإشاعة الديمقراطية كثيراً ما لا تبادر إلى تمكين نخب إحدى الجماعات العرقية إلا لتهميش أخرى بما يفضي إلى إثارة نزاع داخلي. ومن الممكن في أحيان كثيرة أن تكون النخب الاقتصادية محددة عرقياً ومتميزة عن النخب السياسية، الأمر الذي يشكل وصفة أخرى لأزمات داخلية تقود

غالباً إلى صراعات. تقوم الخصخصة بتجريد الحكومات من عَتَلات التحكم الاقتصادي الذي من شأنه أن يوفر فرصة تخفيف هذه التوترات وتقليص فجوات اللامساواة الصارخة الموروثة عن الماضي وصولاً إلى اختزال الخصومات الملتهبة المفضية إلى الصراع. في الوقت نفسه تؤدي لَبْرَلَةُ التجارة والحركة المالية إلى تمكين الرساميل الأجنبية والشركات متعددة الجنسيات من شراء الاقتصادات دون أي اعتبار للتطور الداخلي لهذا الاقتصاد أو ذاك، أو للمجتمع وتنوعه على صعيد الحاجات العرقية والثقافية. تمثلت الحصيلة الإجمالية بقضم المكاسب الاجتماعية الضئيلة التي تحققت، بكثير من الصعوبة، عبر عقود من الزمن؛ والآفاق المستقبلية للفئات الأفقر عبر طيف من المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية تغدو أكثر سوءاً، كما تتزايد انتهاكات حقوق الإنسان، وصولاً إلى عدد كبير من حالات تفجر العنف العرقي على الصعيدين الإقليمي والمحلي التي تخلف وراءها آثار القتل والخراب. من الصعب رؤية الهيمنة حظاً سعيداً. وبوصفها هيمنة، يتعذر الحفاظ عليها إذا ما أقلعت الإمبراطورية عن الاهتمام بما يتجاوز سقفها الاقتصادي الخاص وباتت مستعدة لمسح كل ما عدا ذلك من ذاكرتها ودائرة هواجسها المتقلصة.

ليس الهيمنيون الجدد، كما يلاحظ تشارلز مينز، إلا "محاكاة تقريبية للقيصر (قيصر ألمانيا) وبلاطه بداية هذا القرن (القرن العشرين)".[38] إنهم سُكارى، مثل الإمبرياليين الألمان، بجبروتهم العسكري والاقتصادي، ومتلهفون لفرض إرادتهم على باقي العالم. ومثل إمبراطوريات الأزمان الغابرة، باتت النخبة الحاكمة الأمريكية مبتلية بعلَّتَي الطَّيْش والعُنْف، دائبة على نحو فاضح على انتهاك سائر المبادئ

والقيم التي تحرص على أعلانها بأعلى الأصوات. وكلما زادت الإمبراطورية سُكراً وجنوناً بتأثير القوة العسكرية، ستغدو أمريكا أكثر نزوعاً إلى الحرب، أقوى اعتماداً على الحرب والمراقبة التكنولوجية المتطورة، وأشد توقاً للبحث عن أوغاد جدد تجبرهم على الاستسلام وأمم جديدة تجتاحها. إلا أن أول ضحايا هذه النزعة العسكرية المجنونة سيكونون المواطنين الأمريكيين أنفسهم.

باتت "الحرب على الإرهاب"، حسب كلام جيمس بوفارد، أكبر صناعات النمو السياسي في الولايات المتحدة.[39] فبعد فظاعات 9/11 الشنيعة، سارعت إدارة بوش فوراً إلى زيادة صلاحيات الأجهزة الاتحادية عبر الطيف كله وأوجدت وزارة أمن وطني جديدة. وكما يتساءل شاول لانداو: "لماذا يجد الأمريكيون أنفسهم بحاجة إلى جهاز أمني آخر؟ ثمة على المستوى الاتحادي وحده وكالات أو أجهزة السي. آي. إيه. CIA، الدي. آي. إيه DIA، الإن. اس. إيه. NSA، الإف. بي. آي. FBI، الآي. إن. إس. INS، الإيه. إف. تي. AFT، الدي. إي، إيه. DEA، وما لا يعلم إلا الرب من أجهزة بوليسية وشُرَطية أخرى، جنباً إلى جنب مع درع جملة الوكالات الأمنية الدفاعية والنووية".[40] وهكذا فإن فكرة "جهاز الحكم المتورم" الشريرة العائدة للأمس تكتسب اليوم أبعاداً توراتية حقاً. فبعد وزارة الأمن الوطني تم إقرار قانون توحيد وتعزيز أمريكا عبر توفير الأدوات المناسبة اللازمة لاعتراض الإرهاب وإعاقته- USA) PATRIOT) في الكونغرس دون أي أسئلة تقريباً، وهو قانون يعامل كل المواطنين معاملة إرهابيين مشبوهين ويمنح جميع الأجهزة الاتحادية صلاحية مفتوحة لاتهام أي مشبوه بأي من الجرائم الاتحادية الثلاثة آلاف الواردة في اللائحة. فتشريع معاداة الحريات المدنية الجديد

أفضى خلال شهر واحد إلى توقيف واعتقال ما يزيد على 1200 شخص، لم يكن لمعظمهم أي علاقة بأحداث 9/11. على المدى الطويل بات الأمريكيون، كما يقول بوفارد، يخافون حكومتهم أكثر من الإرهابيين ـ فالأخيرون موجودون اليوم وراحلون غداً، أما الساسة المتعطشون للسلطة فموجودون دائماً. وكلما زاد مروِّجو الإمبراطورية من الإتيان على ذكر الحرية والديمقراطية، تعاظمت فُرَص المساس بالحريات الفردية والأمن العام، فتصاعدت ضرورة تمسك الأمريكيين بحقوقهم الدستورية الباقية وتعويلهم عليها. لعل المستفيد الوحيد من التضحية بالحريات الفردية هو الحكم الذي يجد سهولة أكبر في إخفاء أخطائه ومخالفاته؛ فكلما كثرت أكاذيب الإدارة، قلَّتْ فرص قيام المواطنين بمراقبتها أو إخضاعها للمحاسبة على مفاسدها.

إذن، من شأن أي إمبراطورية هيمنة أن تكون منطوية على عوامل اهتراء وتآكل بالنسبة إلى أمريكا نفسها. فالولايات المتحدة لا تستطيع مواصلة مغامراتها العسكرية، كما يقول تشالز مينز، إلا إذا اعتمدت جيشاً متطوعاً تتألف صفوفه ومراتبه ليس فقط من الزنوج واللاتينيين بل ومن أناس ذوي ذهنيات أقل اتصافاً بالأممية أيضاً. ويرى مينز أن الولايات المتحدة تسير بخطوات سريعة باتجاه تطوير مجتمعين: "لا أسود مقابل أبيض بمقدار ما هما أممي (كوزموبوليتي) مقابل قومي، أو بين أولئك الذين نجحوا مباشرة، أو على نحو مفرط، من جني ثمار الاقتصاد المعولم الجديد خلال السنوات الأخيرة من ناحية وأولئك الذين دفعوا ثمن ذلك الاقتصاد بصيغ الخدمة العسكرية، فُرَص العمل المهددة والأجور المكبوتة، من الجهة المقابلة".[41] إن المستفيدين، الذين لا يشكلون ولو حتى رُبْع السكان، هم الشريحة الأممية الغنية التي لا يؤدي أبناؤها

وبناتها واجب الخدمة العسكرية في جيش الولايات المتحدة. أما الأكثرية الساحقة التي تسدد قيمة فواتير الإمبراطورية فسوف يتم استبعادها واستثارة استيائها وصولاً، وبسرعة، إلى مزيد من الانقسامات والتصدعات في المجتمع الأمريكي.

هل تستطيع الرواية الكوكبية للإمبراطورية، بالفعل، أن تضمن بقاءها؟ هل تستطيع السياسة الخارجية الأمريكية أن تواصل مسيرتها من منطلق التهديدات، عمليات القصف والاجتياح فقط، إذا استخدمنا تعبير مايكل مان ـ "التهديدات يومية، عمليات القصف موسمية، والاجتياح مرة كل عامين؟"[42] هل تستطيع الولايات المتحدة أن تستمر، كما يسأل بنيامين باربر، إلى الأبد وهي "تصدم وترهب" أعداءها، بل وتلغي الحظر المفروض منذ أمد طويل على الاستخدام التكتيكي للأسلحة النووية، أو حتى نشر "أُم جميع القنابل ـ القذيفة الجوية العملاقة (أو المواب MOAB)، قنبلة وزارة الدفاع الجديدة ذات الـ 21000 طن "التقليدية"[43] هل ستتمكن الإمبراطورية الأمريكية من الهيمنة على كوكب الأرض خلال العقود الباقية من القرن الـ 21؟ أم أن التفوق الأمريكي ليس، كما يقول خبير الشؤون المالية الملياردير جورج شورش، إلا "فقاعة" موشكة على الانفجار؟

يرى شورش هذا أننا نعيش في أزمان غير طبيعية، شاذة؛ تماماً في منتصف دورة الازدهار والكساد، في الحقيقة. صحيح أن القوة الأمريكية تبدو هائلة وعملاقة، غير أنها ليست أكثر من فقاعة، لعلها أشبه بفقاعة الدوت.كوم. وتماماً كما حصل مع طَفْرة الدوت. كوم، فإن الخيال نجح في الاستيعاب الكامل والكلي لأي مفهوم عن الواقع. إلا أن من المؤكد أن الفقاعة سوف تنفجر لحظة تصبح الفَجْوة بين الواقع

وتفسيره النزوي أو المزاجي الغريب مستعصية كلياً على الجَسْر ـ تماماً كما فعلت في حالة تكنولوجيا المعلومات. قد تكون الإمبراطورية قادرة على تحقيق الاستقرار لبعض الوقت ـ في العراق وأفغانستان مثلاً. غير أننا ذهبنا بعيداً عن التوازن فباتت العودة إلى الأمر الواقع صعبة بالنسبة إلى أمريكا. إنها القوة الأكثر إثارة للكراهية في التاريخ اليوم؛ وباستثناء "حليف" أو اثنين، تكاد بلدان العالم كلها أن تكون ضد أمريكا. وحين تنفجر الفقاعات فإن المضاعفات، بالنسبة إلى أمريكا والآخرين، ستكون كبيرة طولاً وعرضاً. لا شيء أقل من مراجعة شاملة لفكرة أمريكا، من إعادة تفسير لميثولوجيتها، ومن اعتماد رؤية جديدة سوف ينقذ الموقف.[44]

بالمقابل يرى كاتب وباحث يعمل في المعهد القومي الفرنسي للدراسات السكانية بباريس يدعى إيمانويل تود أن الإمبراطورية الأمريكية قد باتت في حالة تدهور وانحطاط متعذرة الإلغاء. ويجادل تود في كتابه بعد الإمبراطورية أن من غير الممكن فهم قوة أمريكا العسكرية بمعزل عن مستوى أدائها الاقتصادي.[45] ظلت الولايات المتحدة تصدِّر جنوداً منذ عقود، وتستورد سِلَعاً مصنعة ومهاجرين. إنها معتمدة على عمالة ورشات التعرق، في الداخل والخارج على حد سواء، لضمان الحفاظ على ثروتها. خذوا وول/مارت مثلاً. أكبر مخازن أمريكا للبيع بالمفرق معتمدةً كلياً على العمالة الرخيصة في جمهورية الصين الشعبية، وتساهم بقسط ذي شأن في إجمالي الناتج القومي لأكثر اقتصادات العالم سرعة نمو. حتى أعلام وول-مارت ذوات النجوم والخطوط التي يلوح بها الأمريكيون في كل المناسبات مصنوعة في الصين. إن الديون الأمريكية المالية والناجمة عن العجز في ميزان

المدفوعات وهي ديون بالغةالضخامة تبعث على الشلل. لعل حجم الخصوم الذين يقع اختيارها عليهم مؤشر صحيح دال على قوتها الفعلية: أفغانستان، قزم من القرون الوسطى؛ العراق، بلد متخلف لـ 24 مليوناً ممن أرهقتهم عقوبات اقتصادية دامت أكثر من عشر سنوات. باختصار، تعيش أمريكا في وقت مستعار. إنها شبيهة بالإمبراطورية الرومانية في أيامها الأخيرة. وعلى النقيض من ذلك يرى مايكل مان أن تود يخفق في رؤية حقيقة أن المدافعين عن الإمبراطورية يبررون الغايات عبر وسيلة حروب قصيرة وسهلة حقاً. إنهم يريديون خوض حروب لا تتمخض عن أي أكياس جثث ويُفضَّل أن تخاض عن بعد بقوات متفوقة كثيراً. ليسوا مستعدين لتحدي الصين حتى لو أرادوا، لا لشيء إلا بسبب الخراب الهائل الذي سيتبع. والمشكلة الفعلية بالنسبة إلى الإمبراطورية هي أن حتى الحروب القصيرة والسهلة لا تعطي الثمار التي يريدها رافعو راية الإمبريالية. يرى مان أن "من شأن الإمبراطورية الأمريكية، أن تتكشف عن "عملاق عسكري" سائق اقتصادي درجة ثانية، سياسي يعاني من انفصام الشخصية وشبح إيديولوجي. تكون النتيجة غولاً مشوَّشاً، مشوهاً يخبط خبط عشواء عبر العالم"[46] لن يأتي سقوطها من أي تهديدات خارجية، بل سينبع من تمزقه الداخلي الخاص.

يرى تشارلز مينز أن من المتعذر إدامة الإمبراطورية، لأن العالم قد تغيَّر؛ والقواعد التي أرستها القوى الإمبريالية نفسها لتعزيز الإمبريالية لم تعد نافذة. وعلى نحو خاص يقول مينز إن:

- الحرب لم تعد مربحة بالنسبة إلى القوى الكبرى. خلال الجزء الأكبر من التاريخ ظلت الحرب مربحة. كان المنتصر يحصل على مزيد من الأرض والناس. ومع مرور الوقت،

كان جل الأخيرين يقبلون بحكم المحتل الجديد. تلك هي الطريقة التي شيدت بها أكثرية الأمم والدول العظمى في العالم. غير أن استيعاب المناطق المحتلة دون القيام بالتطهير العرقي ما لبث أن أصبح أكثر صعوبة باطراد مع تصاعد النزعة القومية الحديثة. ومن الأمثلة الحديثة الناجمة لاحتلال الأراضي ثمة التغييرات الحدودية الروسية، البولونية، والتشيكية بعد الحرب العالمية الثانية، تلك التغييرات التي انطوت على عمليات تبادل قاسية لكتل سكانية ذات شأن. أما أمثلة احتلال الأراضي غير الناجحة فتشمل تلك التي أبقت على السكان الأصليين حيث هم، كما في احتلال إسرائيل للضفة الغربية، احتلال أندونيسيا لتيمور الشرقية، وقيام الهند بضم كشمير. يضاف إلى ذلك أن أولئك الذين يقترفون جريمة التطهير -العرقي- رغم أنها مازالت تُقترف اليوم في عدد من الأمكنة في طول العالم وعرضه، ليسوا القوى العظمى بل بلدان مازالت في مرحلة بناء الدولة وفقاً لأساليب القرن التاسع عشر. بعبارة أخرى، ليست الحرب، بالنسبة إلى أكثرية الدول الكبرى، خياراً في مجال التماس النفوذ أو الثروة. تُترك الحرب للدفاع.

● أكثرية القوى الراسخة باتت تسعى إلى النفوذ والتأثير الدوليين عبر التنمية الداخلية بدلاً من التماسهما عن طريق التوسع الخارجي. وألمانيا ويابان ما بعد الحرب أكدتا أن هذه طريق أكثر جدارة بالتعويل من أجل بلوغ

قَدْر أكبر من البروز الدولي مقارنة بالطريق التي اعتمدتها منذ عام 1945 كل من بريطانيا وفرنسا، اللتين عوّلتا، كلتاهما، على القوة العسكرية سعياً إلى الحفاظ على مكانتيهما في المنظومة الدولية، تينك المكانتين اللتين ما لبثتا أن تدهورتا.

- سلوك الدول العظمى في المنظومات الدولية التي فقدت أشكال القوة التقليدية في العقود الأخيرة كان مسؤولاً على نحو لافت. فألمانيا واليابان ما بعد الحرب، مثلهما مثل روسيا ما بعد الحرب الباردة، قبلت جميعاً أن تُجرَّد من مناطق ذات شأن دون مضاعفات ذات شأن. تمثل سبب رئيسي بمعاملة الأوليين من قبل منافسيهما وبأمل الثالثة في ألا يبادر باقي العالم إلى استغلال ضعفها وصولاً إلى إقصاء روسيا من النظام الأوربي، بل أن يحاول، بدلاً من ذلك، اتخاذ خطوات جريئة ومتقدمة من أجل احتضانها. فمن شأن أي سياسة قائمة على الهيمنة أن تبعث، على هذا الصعيد، بالرسالة الخطأ تماماً، خصوصاً إذا كان أحد أهدافنا متمثلاً في منع روسيا من "الانبعاث"، في أي من الأوقات، بطريقة من شأنها أن تهددنا.[47]

بصرف النظر عما إذا كانت قواعد بناء الإمبراطوريات قد تغيرت، أو كانت الرواية الكوكبية الأمريكية متناقضة، أو كانت الإمبراطورية في حالة تقهقر، أو كانت القوة الأمريكية مجرد فقاعة تنتظر من يفجرها، ثمة شيء واحد مؤكد ألا وهو: لو كانت الروح الأمريكية فرداً واحداً

لتطلب مرضُها النفسي عناية مؤسساتية وعلاجاً طبياً طويل الأمد. وأستاذ الطب النفسي الزائر في كلية طب هارفارد روبرت لِفْتون يقول إن أمريكا تعاني من "عقدة القوة العظمى"؛ أما نحن فنميل إلى تأكيد أن الولايات المتحدة مصابة بداء "هَوَس الإمبراطورية". يحدد لِفْتون حقيقة "عقدة القوة العظمى" بوصفها سلوكاً إجمالياً يشي بقَدْر واضح من الخلل النفسي والسياسي الذي يكون شديد الطاقة التدميرية لكل من الجسم القومي والعالم الذي يسكنه ذلك الجسم، على حد سواء. وفي عمق العقدة ثمة خوف شديد من الهشاشة والاستهداف. إنه خوف مستند إلى مفهومي العنف الرؤيوي ("صيغة من صيغ المثالية القصوى، نوع من السعي إلى تحقيق يوتوبيا روحية ما") وأمريكا نبوئية تنظر إلى العالم من منطلقات وجودية (انطولوجية) قائمة على الخير والشر، حيث تكون الإمبراطورية خيِّرة وبريئة.[48] ومع أننا لا نعارض هذا التشخيص كلياً، فإننا نميل إلى قول إن علة أمريكا ليست ظاهرة جديدة ـ كما يبدو لِفْتون موحياً. ففكرة أن الرواية الأمريكية خيِّرة وكونية ذات جذور عميقة في التاريخ ومحاولات أمريكا لحكم العالم ولرواية تاريخها الخاص على أنه قَدَر الإنسانية متأصلة في ميثولوجيتها. فعصمتها القاتلة، زعمها بأن نموذجها الديمقراطي هو النموذج الوحيد، وإصرارها على ربط الديمقراطية بالأسواق الحرة، إنْ هي "جميعاً" إلا أجزاء لا تتجزأ من نظرتها العالمية. وقعت أمريكا، بعبارة أخرى، في مَطَب قَلْب ميثولوجيتها إلى باثالوجيا (علم أمراض).

تبقى أمريكا بوصفها رواية كوكبية رؤيا مُسكِرة. تذيب في بوتقتها جميع عناصر الميثولوجيا الأمريكية وتعكسها على العالم ككل. إنها رؤيا أنانية مبرِّرة للذات تقدم تفسيراً لأي من التصرفات الأمريكية في طول

العالم وعرضه. تمكّن الإدارات المتعاقبة في واشنطن، الجمهورية أو الديمقراطية، من تزويد الشعب الأمريكي بتفسيرات لسياسة وممارسة لا تتحددان إلا من منطلق النوايا النبيلة والطيبة. وإيديولوجيا الإمبراطورية هي نفسها الإيديولوجيا التي صنعت أمريكا. وما مساءلة الإمبراطورية الأمريكية إلا مساءلة لذات أمريكا وتشكيكاً بها. تكون النتيجة، ببساطة شديدة، إن أمريكا ليست مستعدة على الإطلاق للترحيب بتطفل الواقع. فواقع دوران دولاب الإمبراطورية الأمريكية موجود ليس في الملكوت السعيد للحلم الأمريكي، بل بوصفه الكابوس الكوكبي للآثار والعواقب. وبالنسبة إلى الجمهور الأمريكي، تدار أعمال الإمبراطورية بالتحكم عن بعد (بالريموت كونترول)، في السر غالباً، مدارة بأكثريتها من قبل وعبر عملاء، أنظمة مؤيدة ونُخَب تابعة في بلد بعد آخر حول العالم. أما جملة انتهاكات حقوق الإنسان والأساليب الوحشية التي يستخدمها هؤلاء الوكلاء أو العملاء للحفاظ على أنفسهم وإدامة بقائهم في السلطة فتكون مدعومة بوجود القواعد العسكرية الأمريكية، المساعدات والتمويل الخفي، غير أن هذا الوجود يترافق مع قابلية الإنكار من قبل واشنطن، قابلية الإنكار التي تصون البراءة. إن الإمبراطورية عن بعد (بالريموت كونترول) توفر فرصة إدارة الظهر، فرصة المبادرة، ببساطة، إلى العودة إلى الوطن والمسارعة إلى مسح الذاكرة إذا انحرفت الأحداث إلى المنعطف الخطأ. غير أنه ليس هناك، كما يشي فلم الجندي الكوني، أيٌّ يقين يؤكد قُدرة حُقَن مَسْح الذاكرة على توفير العزل الدائم للبراءة عن الواقع البشع والشنيع الذي تعنيه الإمبراطورية بالنسبة إلى الآخرين، أكثر مما بالنسبة إلى الأمريكيين الذين هم أدوات فعّالة في إدارتها وتشغيلها. إن تكاليف الإمبراطورية

وعواقبها تستطيع أن تشق طريقها إلى الوطن الأمريكي، وهي تفعل. فالاستقطاب المتزايد لأمريكا، الخارطة السياسية الملونة باللونين الأحمر والأزرق، ليسا، على أي حال، مؤشِّرَيْن دالين على مواقف مستقطبة للإمبراطورية. والرواية الكوكبية تنتمي إلى طرفي الجدل الداخلي؛ لها جذورها العميقة في الفكر، الاستراتيجيات والخطط أو السياسات لدى الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء. فالحزبان السياسيان يعرضان على الشعب الأمريكي أسلوبي تشغيل مختلفين لآلة عقيدة الإمبراطورية، بدلاً من نوع من الحوار والنقاش حول إيديولوجية الإمبراطورية نفسها وحول ما إذا كانت تخدم المصالح طويلة الأمد لأمريكا أو لباقي العالم. أما نجاح الرواية الكوكبية فيتمثل بأنها تمكنت من خلق المسافة المادية والنفسية بين المُثُل والواقع التي لا تترك للعملية السياسية الأمريكية أي مجال لمعاينة الفرق بين الحلم الأمريكي والكابوس الكوكبي.

تتمثل الطريقة الوحيدة التي تمكِّن لوك دفيرو من وضع حد للرقيب سكوت هي المسارعة إلى قذفه في فوهة الفرّامة. تلك صورة بيانية سينمائية. أما في عالم السياسة الواقعي والفعلي، فإن الولايات المتحدة بقيت عاجزة عن ابتكار أي طريقة مناسبة لمناقشة عملية الإصلاح التي لا تبدو فَرْماً وطحناً لكل ما له علاقة بأمريكا. إذن، تبقى أمريكا سجينة حلقة سابقة من مسلسل الجندي الكوني. وهو على الطريق، لا يلبث الجندي الكوني الطيب، لوك، أن يعيد اكتشاف مباهج الطعام، يلتهم طَبَقاً بعد طبق من الطعام. على الأثر يسأله صاحب المطعم عما إذا كان قادراً على تسديد قيمة كل ما استهلكه. لا يقدم لوك أي جواب؛ شديدُ الإصرار هو على الاستمتاع بالمباهج المعروضة أمامه.

"الشيف" العملاق مدعو إلى دعم المطالبة بالتسديد بقدر من التهديد. مرة أخرى لا جواب من جانب لوك باستثناء البيان الواضح: "لا أريد إلا أن آكل". ثمة عراك. "الشيف" الضخم يُقتل. زبائن آخرون ينخرطون في الشجار. يستخدم لوك سلطته العسكرية الجلية لمواصلة الأكل، مواصلاً القتال بفخذ الفروج بيد وقطعة من جسد غريمه بالأخرى. ليس ذلك كله إلا لإثارة الضحك. غير أن وجه الشبه مع أمريكا ليس أمراً باعثاً على الضحك، لا بالنسبة إلى الشعب الأمريكي نفسه ولا بالنسبة إلى باقي العالم. لا تستطيع أمريكا، مثلها مثل لوك، احتواء جوعها المَرَضي. وجبروتُها العسكري، مثله مثل لوك، غير قابل للمناقشة، حتى في تجليه الخيّر، اللطيف. غير أن السؤال هو: ما الذي سيبقى لباقي البشر حين تكون الإمبراطورية قد شبعت؟

obeikandl.com

ختام
بعد يوم الجُرذ

"من البداية تقريباً، ثمة شيء" يقول نيال غابلر "كان خطأ مع أمريكا"[1]. وما كان خطأ كما جادلنا وحاولنا أن نبين هو الميثولوجيا التي ابتدعتها أمريكا لتعيش عليها والتي تحدد معالم صورتها الذاتية. وهذه الميثولوجيا برهنت على أنها مهلكة لأمريكا كما لباقي العالم. ما لبث الحلم الأمريكي أن غدا كابوساً كوكبياً. فجملة القصص المألوفة القديمة القائمة على استعادة ماضٍ زاخر بالأبطال ومفعم بالأهداف النبيلة يجري استخدامها لتوظيف وتسويغ كيف ولماذا تتصرف أمريكا كما تفعل في زمننا الحاضر. إن إيمان أمريكا بقصصها الأسطورية يفرز حلقة زمنية متصلة دائبة على صياغة سلسلة من الانعكاسات المشروطة: قابلية التهكن بردود الأفعال الآلية للأحداث. تظل أمريكا عاكفة على تكرار تاريخها مرة بعد أخرى، متحركة في دوامة حشد من الملاحم الدامية، لأن ما تختار أن تراه أسلوب سعيها لفهم العالم بكل تنوعه المتقلب، يستجيب لجملة نمطيات التفكير المثقل بالأساطير البسيطة الرائجة شعبياً. حين يجري إطلاق آلات القتل والدمار، آلات زرع المعاناة والظلم، ضد أناس آخرين كما ضد مواطنيها ومجتمعها هي بالذات، فإن أمريكا لا تطرح إلا الأسئلة الخطأ الجاهزة، تلك التي تشكل أعداداً مفرطة في الضخامة من العقبات أمام أنواع البحث التي من شأنها أن تكون أكثر أهمية وقابلية للإفضاء إلى حلول أفضل. ما أشبه الحالة الأمريكية بسلسلة مآزق يوم الجرذ.

إن يوم الجرذ هذا أسطورة من ناحية وفلم سينمائي من ناحية ثانية. بوصفه أسطورة، يوم الجرذ قديم قدم الزمن نفسه. جذوره مدفونة في الاحتفالات الوثنية، في أعماق فولكلور سكان أمريكا الأصليين والتراث الألماني. تبعاً للأسطورة: إذا خرج أي جرذ من جحره بعد فترة طويلة من السبات ورأى ظلَّه، سيكون ثمة أربعون يوماً ماطِراً آخر من الشتاء. من الطبيعي أن رؤية الجرذ لظله مشروطة بأن تكون الشمس ساطعة وبأن ينظر قارض الربيع متوجهاً بنظره نحو الاتجاه الصحيح! وفي نسختها الأمريكية الحديثة المستعادة من جديد، فإن أسطورة يوم الجرذ متركزة على بلدة بونكسوتاوني ـ أرض ذباب الرمل ـ البنسلفانية الصغيرة، التي أسَّسَها هنود ديلاوير في 1723. كانت قبائل الديلاوير تؤمن بأن أجدادها بدؤوا الحياة حيوانات في حضن "الأرض الأم"، لينبثقوا بشراً بعد قرون من الزمن؛ بقيت هذه القبائل تعد الجرذان أسلافها المحترمين. وحين جاء مستوطنون ألمان إلى بنسلفانيا اصطحبوا معهم تقليد يوم كاندلماس، الثاني من شباط/فبراير، نقطة الوسط بين الانقلاب الشتائي والاعتدال الربيعي. في هذا اليوم دَرَج الرهبان على مباركة الشموع وتوزيعها على العامة؛ والشموع المضاءة كانت توضع في جميع شبابيك البيوت. وحسب الفولكلور الألماني، فإن من شأن سطوع الشمس يوم كاندلماس (عيد الشموع) أن يجعل حيواناً يلقي بظله، بما يتنبأ بتمديد الشتاء مدة ستة أسابيع. في وطن الأجداد، ظل الألمان حريصين على تحرّي القارض بحثاً عن الظل. في بنسلفانيا وفَّرَ الجرذ بديلاً ملائماً. لذا فإن الثاني من شباط/فبراير ترسخ رسمياً الآن بوصفه يوم الجرذ (أو عيد الجرذ)؛ والجرذ المخوَّل هو عاشق بونكسوتاوني.

تتولى الأسطورة الساحرة هذه مهمة تجهيز فلم يوم الجرذ (1993) بإطاره. والراصد الجوي الشهير المهووس ذاتياً في محطة تلفزيون بيتسبورغ، وهو يحمل اسم عاشق (فيل)، ولا غرابة، مضطر للقيام بالرحلة السنوية إلى بونكسوتاوني لتغطية الحدث الإعلامي الذي هو الآن يوم الجرذ. هذه هي الزيارة الرابعة الهادفة إلى رصد الظهور السنوي لعاشق (فيل) بونكسوتاوني المقدس، الذي سيُبْلِغ الأمة ما إذا كان الربيع قد حل أخيراً. يقوم فيل بتغطية المهرجان ويعتزم العودة إلى بيتسبورغ، غير أن عاصفة ثلجية تضطره للبقاء في بونكسوتاوني. في اليوم التالي يستيقظ فيل فلا يرى أي أثر للثلج. إنه صباح اليوم السابق ويوم الجرذ بادئ مرة أخرى من جديد. بعد يوم عمل كامل من المهرجان، يستيقظ فيل على الصباح ذاته تماماً: المنبِّه في غرفة فندقه (وهو فندق من نوع سرير وفطور) ينطلق في الساعة السادسة، ويصدح الراديو بأغنية "آي غوت يو بيب (ملكتك يا صغيرتي)"، يتم الإعلان عن إعصار وشيك، يصطدم بأحد النزلاء، يطلب فنجان إسْبَرَسّو في غرفة الفطور، يلتقي صديقه الأحمق من أيام المدرسة الثانوية الذي يحاول بيعه عقد تأمين، ويعثر على مخرجته ريتا ومصوره لاري العاكفين على الإعداد لتصوير المهرجان. يوم الجرذ لا ينتهي، يكرر نفسه مرة بعد مرة بعد أخرى في دَوْرة لانهائية. وكل يوم، يكون عالم فيل مأهولاً بالناس أنفسهم غير أنه لا يدرك سوى أن يوم الجرذ يكرر نفسه، ولا يستطيع أن يتذكر إلا ما حصل بالأمس. بعد قَدْر من التشوش في البداية، يبدأ فيل يفكر بأنه خالد وقادر على اقتراف أي مخالفة دون التعرض للمحاسبة: يطلق العنان لأهوائه بل ويخدع الموت. غير أنه لا يلبث أن يكتشف فجأة أن عليه، إذا أراد الخروج من المأزق، أن يغير سلوكه. يبدأ فيل بإذابة شتائه

الأخلاقي ـ المعنوي بدفء بعض الأعمال الخيرية، متعلماً العزف على البيانو، ومتصالحاً مع نواقص حياته الخاصة وعيوبها. أخيراً يبزغ فجر يوم جرذ يكون فيه فيل قد تحول كثيراً إلى درجة تجعل حتى ريتا المعانية طويلاً، تلك التي كانت رواقية في تحملها لسلوكه الطفولي الأخرق، تبدأ بالتعاطف معه.

إن أمريكا واقعة أيضاً، مثل فيل، في شَرَك يوم الجرذ. فالتاريخ القومي الذي يجري تقديمه بوصفه تغييراً، طاقة وحركة يتحلل ليكشف عن امتثال كامن في العمق هو التحديد لطريقة أمريكية مستمرة. لقد سلَّطْنا الضوء على عشرة نواميس للميثولوجيا الأمريكية تتضافر فيما بينها لتتمخض عن هذا الاطراد والاتساق الكامنين في العمق على صعيدي الفعل ورد الفعل. لكل ناموس، لأنه ناموس، طبقات متعددة من المعنى وقابليات تطبيق متنوعة. والنواميس هي: الخوف جوهري؛ الهروب سبباً للوجود؛ الجهل نعمة؛ أمريكا هي فكرة الأمة؛ إضفاء الديمقراطية على كل شيء هو جوهر أمريكا؛ يحق للديمقراطية الأمريكية أن تكون إمبريالية وأن تعبر عن نفسها بنظام إمبراطوري؛ السينما قاطرة الإمبراطورية؛ الشهرة هي عملة الإمبراطورية الدارجة؛ الحرب ضرورة؛ و، أخيراً، التراث والتاريخ الأمريكيان روايتان كونيتان قابلتان للتطبيق عبر الأزمان والأمكنة كلها. تشكل هذه النواميس، مجتمعة، "فكرة الجماعة"، الذهنية الجماعية للأمة. يجري نشرها عبر الثقافة الشعبية جنباً إلى جنب مع صياغة خطاب الحياة السياسية وخطتها. وتعامل أمريكا مع الأحداث، معيدة تشكيل أساطيرها لا لشيء إلا لإبقائها حيث هي على نحو أكثر رسوخاً، لا يتم إلا في إطار الشروط المألوفة لهذه النواميس. إن التكرار هو الشعار الذي يخترق تاريخ أمريكا.

من الواضح أن قراءتنا لتاريخ أمريكا وثقافتها متناقضة مع وجهة النظر الرسمية. لسنا الكسيس دو توكفيل. لسنا ذلك الفيلسوف الليبرالي الفرنسي الذي زار أمريكا وجال فيها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ونشر في 1835 الجزء الأول من الديمقراطية في أمريكا،[2] مضمناً إياه رأياً إيجابياً ومتفائلاً عن الجمهورية الجديدة. فهو يُطْري روحَ المساواة الديمقراطية، أهمية الدين في الحياة الأمريكية و"الدستور الذي لا نظير له" الذي يمنح الأمة حُكْماً لامركزياً. وكُلٌّ من هذه المبادئ أصبح مركزياً في تفكير دو توكفيل الخاص، وكتاباته عن أمريكا تقدمها نموذجاً لسائر الأمم. من الصعب أن نتذكر كتاباً عن أمريكا لا يتضمن إشارة أو اقتباساً أو اثنين من دو توكفيل. أعماله متوافرة على نطاق واسع على الإنترنت، بما في ذلك عدد كبير من المواقع المكرسة للاقتباس وخلاصات الطلاب المدرسية وحدها ـ في إشارة واضحة إلى أنه موضوع دراسة أساسي بالنسبة إلى الأمريكيين. أما الوصف الذي يجده الأمريكيون بالغ الدلالة على صورتهم الذاتية ـ "أمريكا عظيمة لأنها طيبة، وإذا ما توقفت أمريكا عن أن تكون طيبة، فإنها لن تعود عظيمة" ـ فتتكرر الإشارة إليه، اقتباسُه من قبل رؤساء الجمهورية والسياسيين الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء، وهو يُنْسب إلى دو توكفيل الحاضر دائماً. ونحن نجد عدم ورود هذه العبارة في أي مكان من كتاب الديمقراطية في أمريكا، أو في أي مكان آخر من كتابات دو توكفيل متفقاً كلياً، مئة بالمئة، مع تحليلنا. إن المصدر الواضح لهذا الاقتباس "غير المحقق" تبين أنه كتاب صادر سنة 1941 عن الدين والحلم الأمريكي أورد العبارة آنفة الذكرة بوصفها عبارة مأخوذة من الديمقراطية في أمريكا ولكنه لم يقدم توثيقاً.[3] ثمة طبعة أشمل

للاقتباس ظهرت بعد إحدى عشرة سنة في أحد خطابات آيزنهاور الانتخابية:

بحثتُ عن عَظَمة أمريكا وعبقريتها في موانئها الفسيحة وأنهارها الغزيرة ـ ولم تكونا في حقولها الخصبة وغاباتها اللامحدودة، ولم تكونا في مناجمها الغنية وتجارتها العالمية الواسعة ـ ولم تكونا موجودتين... في برلمانها (كونغرسها) الديمقراطي ودستورها الذي لا نظير له ـ نعم لم تكونا كامنتين في هذا كله. لم أفهم سر عبقريتها وقوتها حتى توغلت في كنائسها وسمعت أصداء الحق تتردد من على منابر وَعْظها. إن أمريكا عظيمة لأنها طيبة، وإذا ما توقفت عن أن تكون طيبة فإنها ستتوقف عن أن تكون عظيمة.[4]

لم يُنسب هذا الكلام إلى دو توكفيل مباشرة بل إلى "فيلسوف حكيم جاء إلى هذا البلد". وهكذا فإن الفقرة وجدت طريقها إلى ساحة التداول والنَّسب العام إلى دو توكفيل. اقتبسها رونالد ريغان في خطاب له سنة 1982، وقد استخدمها كل من بِل كلنتون، بات بوكانان وعدد لا يصحى من الساسة. إنه اقتباس عظيم لأنه يقول للأمريكيين ما يريدون سماعه، ما يرغبون في الإيمان به عن أنفسهم. إنه اقتباس عظيم لأنه مثل أشياء كثيرة جداً في التاريخ الأمريكي، أسطورة مصطنعة (مفبركة).

يبقى "عامل دو توكفيل" حياً وفي حالة جيدة ليس فقط في تكرر هذا الاقتباس. فروحه موجودة في كل مكان بأمريكا ـ خصوصاً في مفاهيم تؤكد أن أمريكا أمة يتعذر الاستغناء عنها، ديمقراطية مثالية، ضمير العالم الأوحد. انظروا، مثلاً، إلى التفجر النموذجي لعلاّمة الأخبار بالكوابل النجم بِل أورايلي. في تموز/يوليو 2004 قال لجمهوره: "الحقيقة هي أن الولايات المتحدة الأمريكية حررت في غضون 230

سنة عدداً من البشر يفوق عدد الذين حررهم باقي العالم مجتمعاً". ثم يضيف ولها "تاريخ قابل للبرهنة حافل بتحرير المظلومين في طول العالم وعرضه كما بمحاربة الحكام الدكتاتوريين". في نوبة "حمى عاطفية" ييتسية (نسبة إلى الشاعر الإيرلندي وليم بتلرييتس ـ المترجم) حقاً، واصل أورابيلي كلامه قائلاً:

تمخضت سياسات رونالد ريغان الخارجية والدفاعية عن تفكك الاتحاد السوفيتي وتحرير ما يقرب من 122 مليون نسمة في أوربا الشرقية. كان من شأن دولة إسرائيل أن تتوقف عن الوجود وأن يتعرض نحو 5.5 مليوناً من اليهود لخطر جدي لولا الحماية الأمريكية. ولولا هذه الحماية لبقي 23 مليوناً من التايوانيين محرومين من الحرية. وكان من شأن 48 مليوناً من الكوريين الجنوبيين أن يبقوا رازحين تحت نير النظام الدكتاتوري لولا الحماية الأمريكية. أفضى تحرك الولايات المتحدة إلى الإطاحة بالدكتاتور الصربي ميلوسوفيتش، المسؤول عن جرائم قتل مئات الآلاف من الناس في شبه جزيرة البلقان. قامت الولايات المتحدة وبريطانيا بإزاحة دكتاتور العراق صدام حسين المسؤول عن جرائم قتل مئات الآلاف من الناس في الشرق الأوسط. كذلك نجحنا في إزاحة حُكْم الطالبان الإرهابي في أفغانستان. تقوم أمريكا بإرسال 15 مليار من الدولارات إلى أفريقيا لمساعدة ضحايا مرض الإيدز.... إن التحرك الأمريكي هو الذي أنقذ ملايين البشر من الأنظمة التوتاليتارية في أمريكا الوسطى، غْرَنادا، وهايتي. وهذا كله كلّف بالطبع كل دافع ضرائب أمريكي ثمناً باهظاً. وثمة آلاف من العاملين الأمريكيين فقدوا حياتهم من أجل حماية أناس فيما وراء البحار.[5]

حقاً، إن أمريكا عظيمة لأنها طيبة. إلا أن المشكلة مع هذه النظرة

إلى الأحداث العالمية هي أنها تنكر دَوْرَ أي شعب آخر، مؤكداً الرأي القائل بأن أمريكا هي الأمة التي يتعذر الاستغناء عنها. قد يكون من حق الأوربيين الشرقيين شرعاً أن يروا أن تحركاتهم وأفعالهم لعبت دوراً رئيسياً في تمكينهم من الحصول على إداراتهم الجديدة، بل وأن يعيدوا جذور الأمر إلى سياسة غورباتشوف التي قامت على الغلاسنوست (الشفافية) والبريسترويكا (إعادة البناء) وعلى إعلانه أن الدبّابات الروسية لن تقتحم العواصم الأوربية الشرقية مرة أخرى، بدلاً من ربطها بسياسات ريغان وخططه. إنها تتبنى رؤية أمريكية محددة للحرية: حالة إنسانية محددة فقط بعدم الخضوع لقبضة أي نظام شيوعي. أما حقيقة أن أمريكا الوسطى، تايوان، كوريا الجنوبية، غرنادا وهايتي عرفت جميعاً دكتاتوريات رأسمالية مارست انتهاكات فظة للديمقراطية مصحوبة بدَوْس حقوق الإنسان بما فيها أعمال التعذيب المنتشرة على نطاق واسع، المذابح و"حالات الاختفاء" في ظل وصاية أمريكا وإشرافها، فلا داعي لإلقاء الضوء عليها. كما ليس ثمة ما يدعو إلى الكشف عن تواطؤ السياسة الخارجية الأمريكية في عملية وصول الطالبان وصدام حسين إلى السلطة وإلى أخذ مثل هذا التواطؤ بنظر الاعتبار. فما هو مثالي يصر دائماً على استبعاد الواقع؛ والحرية النظرية القائمة على الوهم والخيال تبقى دائماً أقوى من الطابع الفعلي للحكم والشرط المعاش.

كان سبب انفجار أورايلي استطلاعاً حديثاً مغفلاً أظهر أن نسبة 40 بالمئة من المراهقين الكنديين ـ صاعدة إلى 64 بالمئة بين الفرنسيين ـ "تعتقد أن أمريكا بلد شرير". وكل من كندا وفرنسا هدفان استثنائيان لعداء أورايلي. وقد قال تعليقاً على الاستطلاع إن الولايات المتحدة تتعرض لهجوم لا يعرف معنى الرحمة في وسائل الإعلام الكندية ومن

جانب الحكومة الليبرالية في كندا. برأي أورايلي، لا يحصل الشباب الكندي على الصورة الكاملة ـ لأن فوكس نيوز ليست مسموحة في كندا في حين تتمتع شبكة السي. إن. إن. المنافسة بالحرية. وما هو أسوأ: أن اليسار المتطرف في أمريكا، متمثلاً بزمرة المعروف مايكل مور، دائب على التشهير بأمريكا صبح مساء زاعماً على مسامع الجميع أنها مكان بالغ السوء. ومما قاله أورايلي إن "على كندا أن تخجل من يكون هذا العدد الكبير من شبابها غارقين في الجهل". "وعار وشنار على الأمريكيين والكنديين والأوربيين أن يشجبوا هذا البلد لأنهم يمقتون سياسات معينة. المعارضة جيدة. أما التشهير فليس مقبولاً".

يتساءل المرء هل ثمة أي مجال للمعارضة؟ وما نوع الاعتراض المقبول في مواجهة هذا الهجوم المسموم والنظرة العالمية التي يصفها؟ لم يكن الدخول في حوار نقدي مع الأمريكيين حول أمريكا ميسَّراً في أي من الأوقات. لم يسبق لمساءلة جملة الأفكار والميثولوجيا المشكِّلة للروح الأمريكية واكتشاف حقيقة أنها خاطئة، ضعيفة وملأى بعدم الكمال الذي هو أكثر الصفات إنسانية أن كان مرحباً بها في أي من الأوقات مرة أخرى. غير أن مثل هذا الاشتباك النقدي أمر جوهري وملح. ثمة سيل من المؤشرات الضاغطة والمقنعة بأن أمريكا مصرة على عبور عَتَبة دو توكفيل الأسطورية. فالحلم الأمريكي قد أصبح كابوساً كوكبياً لأن لعواقب القوة الأمريكية تأثيراً مدمِّراً في الوضع الفعلي لحيوات الناس في طول العالم وعرضه، إضافةً إلى أنها تكلف أرواحاً لا عد لها ولا اعتبار في أمكنة بعيدة جداً عن الولايات المتحدة.

لا يكُفُّ بِل أورايلي عن إبلاغ جمهوره بأن قناتَه هي الأكثر رواجاً بين قنوات الكوابل الإخبارية، بأنه شديد الحرص على البحث عن

مصالح الناس العاديين وبأنه مشغول بالحقائق البسيطة "بعيداً عن الإثارة" بدلاً من اعتماد اللغة السياسية المزدوجة. إنه نصير قوي للموقف المحافظ في الحرب الثقافية، شاجب متشدد لموسيقا الراب، لعصابات الليبراليين من العاملين في هوليوود، من القضاة، من النشطاء الاجتماعيين ومن منتسبي الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. لذا فإنه يحتكر لنفسه سلطة تحديد ما تعنيه المعارضة المشروعة، دائباً، وبانتظام، على لجم وإسكات التعليقات التائهة، السائبة التي تتجاوز حدودها المضبوطة والمسيّجة. ليس بل أورايلي أمريكا، ومن غير الصواب اعتباره ممثلاً للتيار الرئيسي. غير أنه يبقى جزءاً من عملية النشر، ولاسيما الإذاعي، التي تقوم على الترويج للنزعة المحافظة العدوانية المتشددة. ثمة خطاب لاذع يجري على قدم وساق عن انحياز إعلامي في أمريكا بصرف النظر عما إذا كانت موجات الأثير الوافرة خاضعة لآلات الدعاية اليمينية أو اليسارية. إنه انحياز يشل كل بحث نقدي مهما كان نوعه. غير أن المشكلة الحقيقية ليست في التوجه السياسي بمقدار ما هي متمثلة بواقع أن الأخبار والأحاديث باتت متزايدة الخضوع للتعليقات والآراء التي ليست إلا أوهاماً شخصية يجري استعراضها كما لو كانت معلومات. تقضي الروح الديمقراطية للكلام الإذاعي بأن يكون الجميع أصحاب آراء، وهم كذلك في الحقيقة. إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أن كلاً منهم يعرف الأمر الذي يتحدث عنه. لعل أفضل مؤشرات هذه الإشاعة للديمقراطية هو الانبهار المهووس بمحاكمات المشاهير والنجوم. ليست أي محاكمة حقوقية في محكمة إلا بحثاً عن حقيقة توصل إلى حكم مدروس، قائم على العقل والمنطق. غير أن محاكمات نجوم معينين تخطف أبصار الجمهور، عبر الإذاعة والتلفزيون، موفرة ساعات من

التغطية قبل توجيه التهم، قبل حصول المحاكمات، وخلال جلسات المحاكمة. حشد من الإعلاميين، من محامي الدفاع والمدعين العامين السابقين، مع جيش من خبراء القضاء الشرعي ورجال الشرطة السابقين، سيلتقي للمبالغة في إطلاق التخمينات والتصورات، بمرجعية ظاهرة، حول أمور قد لا يكونون قادرين على الإحاطة بها، منكبّين على تمحيص كل جزئية من المعلومات، من الأضاليل ومن التفاصيل الزائفة المؤلِّفة لندوات التلفزيون والراديو والصحف. ترمي الممارسة إلى تشجيع الجميع على تشكيل رأي محدد. تأتي النتيجة متمثلة بجعل أي محاكمة نزيهة، بمعنى محاكمة تقررها هيئة محلفين محايدة غير ملوثة بالتعرض لضجيج القضية، شبه مستحيلة. من قضية أو. جي. سمبسون إلى محاكمة سكوت بترسون، لا يؤدي حق الجمهور في امتلاك رأي إلى إضفاء ثوب الديمقراطية على النظام القضائي ـ إنه يقوض الغرض الذي يرمي هذا النظام إلى تحقيقه.

الأمريكيون أناس يعيشون على إضفاء الصفة الدارمية على أنفسهم، وأعظم آلات الدراما هي الإثارة. ومحاكمات النجوم اليوم مع المشاهد الجانبية التي تفرزها على التلفزيون والإذاعة والصحف ليست جديدة. إنها جزء من عملية تكرر الحياة الأمريكية. وتوسع المنافذ الإعلامية لا يفيد إلا في تأكيد وترسيخ نزوع كان موجوداً على الدوام. فنزعة الإثارة هي التي تفعل فعلها وتَلْقى رواجاً لدى الجماهير العريضة. إنها مسلسل المغامرات المشوقة، الطاقة التي تحرك الصيغة الروائية وتطغى على محاكمة ما يجري ولماذا مغلِّفة كل الأمور بضباب كثيف من الغموض. تبقى الإثارة متعة، إلهاءً يَقْطَع النَفَس، محركة للعواطف بدلاً من الحفز على طرح الأسئلة. تتواصل الإثارة مع الجمهور على مستوى

غريزي، دائبة على التأكيد، الطمأنة، الإخافة، زرع الرعب. إنها تقدم صورة نابضة بالحياة للإحساس بالذات، لمسألة "هذا هو نحن وكيف أصبحنا (نحن الشعب)". إنها تبرئة دونما تأمل، وتأتي بصحبة عبارة الخروج الأنيقة تجنباً للمسؤولية أو الأسئلة المحرجة: ليست سوى تسلية! غير أن ثقافة المناقشة والحوار كلها لا تلبث أن تتعرض، تحت تأثير قضية التسلية، لداء نسيان نوعية المعلومات المروَّجة. وقد أشار نيال غابلر بوضوح إلى "أن الإلهاء، لا الدين كما أعلن ماركس، هو الأفيون الحقيقي للجماهير"[6].

ومهما يكن فإن الدين في أمريكا يبقى قوة جبّارة. فمنذ الصحوة الكبرى في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، تلك الصحوة التي أضْفَتْ الديمقراطية على المسيحية وأضفت الثوب المسيحي على أمريكا، ظل الدين يحمّل التسلية معانيه الخاصة. بقيت أعراف الوعظ الإنجيلي المميزة، الاستجابة الحماسية من قبل جمهور المصلين والإثارة العاطفية للتراتيل الشعبية أسباب تسلية ولهو وما لبثت أن أصبحت تجارة رائجة. ثمة وجهان للفكر الإنجيلي دائبان على إعادة صياغة المشهد الأمريكي بقدر أكبر من العمق مقارنة بحدائق الموضوعات الدينية والكاتدرائيات البلورية. أحدهما هو النزوع إلى الحَرْفية. فالحَرْفية التوراتية القائمة على عِصْمة كتاب الملك جيمس المقدس تُركِّز على صعود حركة الخلق (الحركة المؤمنة بما ورد في سفر التكوين بشأن خلق الكون)، وهي حركة قوية في الحياة الأمريكية. وعقيدة الخلق هذه هي الداعية إلى الإيمان بالمعنى الحَرْفي للأيام الستة التي شهدت قيام السماء بالخلق كما ورد في سفر التكوين. وهي تتناقض تناقضاً صارخاً مع الداروينية التي تستند إلى مفهوم التطور، بجميع صيغها المختلفة. ثم ما لبثت أن تحولت

هذه العقيدة إلى منظمة متزايدة التعقيد. غير أن تأثيرها الأبرز بقي متمثلاً بفرض القيود على النقاش والحوار داخل الدوائر الدينية والأوساط العلمية على حد سواء. دأب الحَرْفيون على رفع مترجمي إنجيل الملك جيمس إلى مرتبة المفسرين الموثوقين الوحيدين لكلمة الرب، مع حصر المعاني التي يمكن إضفاؤها على الكلمات الفعلية التي استخدموها لدى تأليف ترجمتهم لنصوص الكتاب المقدس. فعبارة "ستة أيام" يجب أن تعني ستة أيام بالمعنى التقليدي القائم على أساس أن اليوم الواحد يمتد ٢٤ ساعة. وأي تصور علمي لتطور حاصل خلال فترات طويلة من الزمن إنْ هو، بنظر الخَلْقيين، إلا كُفْر، إنكار للرب، وتدنيس للعالم عبر تجريده من السماء. غير أن ما يثير الدهشة هو أن الخَلْقيين الذين يمقتون الدارونية العلمية كثيراً متصالحون تماماً مع التقليد الأقدم بكثير والمعروف عموماً باسم الدارونية الاجتماعية. ففكرة أن التنظيم الاجتماعي للبشر قد تطور عبر مراحل مختلفة قديمة جداً ومألوفة، وتتخذ لها مكاناً مريحاً في إطار عالم التوراة. البشرية سقطت حيناً وصعدت آخر؛ وهذه العملية موجهة، نظرياً، بمشيئة السماء، غير أن الأحكام المحدِّدة للأقوام الدنيا ولماذا تبقى من صنع البشر. ومجمل صرح الدارونية الاجتماعية قام كلياً على أساس المفهوم البيولوجي للعرق: ليس القول بوجود أعراق عليا وأخرى دنيا إلا تبنياً، بالطبع، لمبدأ بيولوجي.

انتفض العلماء لمحاربة انتشار العقيدة الخَلْقية. وفي غمرة العملية ما لبثت نظرية الدارونية البيولوجية ـ مبدأ التطور عبر التكيف والتعديل ـ أن أصبحت منظومة إيمانية، ديانة علمية فوق المساءلة. أكثر مؤيديها تشدداً يصرون على أن العلم لا يترك أي مجال لأي خالق سماوي لأن

التطور يقدِّم تفسيراً لكل شيء. إلا أن أكثرية المسيحيين الساحقة، ومعها عدد كبير من العلماء، نجحت في التوفيق بين مفهوم التطور والإيمان برب خالق كلي القدرة. ونشر كتاب أصل الأنواع لدارون في 1859 لم يكن، بالنسبة إلى الأكثرية المجبَرة على الصمت، إعلاناً للحرب بين الدين والعلم، بل تحدياً للعقل والفهم. والتحدي مستمر. مسيحيون كُثر، علماءً وأناساً عاديين على حد سواء، يطرحون أسئلة نقدية حول كيفية توظيف نظرية التطور أساساً لجملة التفسيرات العامة للعالم كما لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية. تكمن المعضلة في أن التزمت الداروني في إطار العلم خاضع لحراسة صارمة ومتشددة بسبب وجود العقيدة الخَلْقية. فمثل هذا التزمت يمهد لتشكل مزاج أصولي في الأوساط العلمية يحول دون طَرْح أسئلة معقولة لأن الناس يخشون من إثارة الشبهة بأنهم خلقيو تقيَّة، أو يشكِّلون الطرف الدقيق للإسفين الخَلْقي. وفي غمار هذه العملية نجد جميع أولئك الذين هم في الوسط والميالون إلى طرح الأسئلة والمحاكمة العقلية متعرضين للتهميش.

أما الأثر الثاني للمزاج الإنجيلي في الحياة الأمريكية فهو النزوع إلى التأليه. بدأت أمريكا وهي شاعرة بأنها ذات رسالة دينية، غير أن ذلك مختلف تماماً عن الإصرار على أن الأمة، الدستور، منظومة القوانين وجميع مفاعيلها سماوية، من إلهام الروح كما هي الحال مع إسرائيل التوراتية بالذات. ورفع معنى ومغزى عمل الإنسان إلى مرتبة أعمال من إلهام الرب إن هو إلا توسيع لدائرة الحَرْفية التوراتية. إنه تجاوز للتوجه العام في التاريخ والفكر الأمريكيين لإلباس الأمة، تاريخها ورموزها هالة من القداسة، لعدها وجوهاً لديانة أهلية منتشرة. غير أن مساعي الإصرار على الاستعراض العلني للأوابد على وقع الوصايا

العشر، على الحماسة الصاخبة لعبارة "باسم الرب" في تعهد الولاء، تنطوي على ما هو أكثر بكثير من مجرد معارضة النزعة العلمانية الجذرية. لعل النموذج الأفضل الذي نستطيع تقديمه، نظراً لكون أوجه الشبه أوضح من إمكانية تجنبها، هو صعود الأصولية الإسلامية في عالم المسلمين. ثمة في الحالتين، كلتيهما، رغبة في تأسيس المجتمع والفكر على يقينية حَرْفية مستمدة من الدين. والقضية المطروحة في الحالتين، كلتيهما مرة ثانية، هي قضية التفسير التاريخي الإنساني للدين. إن آراء الأولياء الصالحين الذين ماتوا منذ أزمان بعيدة تغدو أكثر أهمية من الصراع والنقاش الشخصيين المتواصلين للنص الديني. يتركز الهدف على لجْم القلق الناجم عن التغيير الاجتماعي السريع، عن التنوع الاجتماعي وعن جملة أنماط السلوك الجديدة التي يتمخضان عنها هذان التغيير والتنوع الاجتماعيان. في الحالتين، كلتيهما، يجري تقديم هذا البحث عن اليقين بوصفه رجوعاً إلى نمط أصلي، نقي وكامل، من أنماط الفعل، الفكر والإيمان، وفي الحالتين، مرة أخرى، يفضي البحث إلى شيء جديد تماماً، حل أصيل ينتمي إلى ما بعد الحداثة مئة بالمئة. فالأصوليون في أمريكا، مثل نظرائهم في العالم الإسلامي، شديدو الالتزام بنوع من أنواع شرعة الأخلاق الشخصية. غير أن الأمر لا يقف عند هذا الحد في الساحتين. ولضمان النظرة العالمية القائمة على الأخلاق لابد لحصيلة البحث الطبيعية والمنطقية عن يقينيات دينية بسيطة، في المجالين كليهما، من أن يكون متمثلاً بمزاج نضال مسيَّس. يتحول العالم إلى ساحة معركة بين الخير والشر؛ وما من شيء إلا ويدخل في سياق هذا الإيمان.[7] إلا أن هذا المزاج الأصولي لا يلبث أن ينقلب حين يتعرض للتسييس، إلى سياسة ذعر تفعل فعل الكمّاشة

بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة. يتعرض الحوار لقَدْر متزايد من التقييد؛ يصبح شجب طرح الأسئلة بوصفه افتقاراً للالتزام بقيم جوهرية دائمة أمراً بالغ السهولة. ففي أمريكا، تتردد لغة القيم كثيراً في النقاشات السياسية. غير أن معنى القيم وتطبيقها العملي ومضامينها تتوقف عن أن تكون موضوع حوار جدي. القيم يتم الإتيان على ذكرها، ولكنها لا تُعرض على المحك، لا تُعاين. لا يقف الأمر عند إسكات الأكثرية المتواضعة؛ فكرة احتمال وجود بدائل، آراء جديدة، مفاهيم جديدة تخص المجتمع الأمريكي والعالم ككل بالذات يجري إسكاتها خوفاً، يتم تهميشها وإزاحتها عن جدول الأعمال السياسي للنقاش الجاد.

في "الحرب على الإرهاب" يهتدي هذا المزاج الديني الحَرَكي، المسيَّس في أمريكا إلى غريمه النموذجي. طائفتان كل منهما تفهم الأخرى غريزياً جاهزتان للاشتباك في معركة رؤيوية، كارثية. وما يبقى أقل وضوحاً هو مدى قُدْرة باقي المجتمع الأمريكي، العالم الإسلامي أو العالم عموماً على التدخل للتشكيك بالسياسات وتغيير مسار الأحداث للتخفيف من الانزلاق إلى هُوَّة ملأى بقَدْر متزايد من الخطر وعدم الأمن بالنسبة إلى الجميع وفي كل الأمكنة.

تبقى حالة الحوار الأمريكي قضية مثيرة لقلق كوكبي ملح. لقد أعلنت أمريكا حرباً مفتوحة متواصلة "على الإرهاب". والإرهاب تكتيك وليس أمة، شعب أو منظمة سياسته محددة. وبوصفه تكتيكاً يتعالى على الحدود ويتجاوزها، يتم اعتماده في ظروف مختلفة لأغراض متباينة من قبل جماعات متنوعة؛ إنه موجود ويتحرك في عدد كبير من الأمكنة في طول العالم وعرضه. لذا فإن أي حرب على الإرهاب لا تضع حدوداً لما قد تفضي إليه. وقد جرى استخدام هذه "الحرب على الإرهاب" لشَرْعَنَة

عقيدة جديدة في السياسة الدولية، حق الهجوم الاستباقي المصبوب في قالب الدفاع عن النفس. تحت هذه الراية، شنَّت أمريكا حرباً غير مشروعة مستندة إلى معلومات استخباراتية زائفة كَلَّفَتْ عشرات آلاف الأرواح ودمرت حيوات ملايين إضافية في العراق. في أعقاب الحرب نجح الإرهابيون الدوليون في إقامة قواعد لهم في العراق الذي لم يكونوا موجودين فيه على الإطلاق من قبل. وقد تحول العراق إلى مركز جذب لإرهابيي المستقبل الساخطين مما وفر لمجمل بنية الإرهاب الدولي وتنظيمه زخماً حياتياً جديداً، جاعلاً إياه أوسع انتشاراً وأصعب على الاستئصال. شكَّل العراق كَشْفاً لحدود القوة والقُدْرة الأمريكيتين، وهذا مبعث قلق بالنسبة إلى كل مواطني كوكب الأرض. فما يعرفه الأمريكيون، الأسلوب الذي تعتمده أمريكا في إدارة أي نظام، ما يسمح الأمريكيون بفعله نيابة عنهم، قضايا بالغة الحيوية بالنسبة إلى سلامة ورفاه الناس في كل الأمكنة. ما إذا كان العالم قادراً على الانخراط في الحوار الأمريكي هو السؤال الكبير التالي الذي يطرحه مستقبل الإنسان.

يؤدي تفعيل النواميس العشرة للمثيولوجيا الأمريكية إلى بناء نَفْسيّة وصورة ذاتية قوميتين تحولان دون أي تحليل جدي للسلطة. أمريكا راضية بنفوذها المهيمن في العالم لأنها راضية عن نفسها. لا أحد يفكر بأن من شأن القوة أن تكون سبباً لتآكل أمريكا تماماً كاستخدام القوة بالنسبة إلى باقي العالم. ليس لدى الأمريكيين المتوسطين أي تقدير واقعي لمدى قوة دولتهم، مما يبقيهم عاجزين عن إدراك كيفية قيامها بتشويه ومراقبة جميع العلاقات، الأوضاع، الأفعال والظروف في طول العالم وعرضه والتحكم بها. يجري تشجيع أعظم تراكم للقوة سبق للعالم أن شهده على استعراض عضلاته من ناحية

وعلى الخوف من ضعفه وهشاشته من ناحية ثانية في الوقت نفسه ـ والاستجابتان كلتاهما تعبيران عن سوء استخدام القوة، وليسا أسلوبين مسؤولين لبلوغ السلامة والاستمرارية القابلة للدوام، بله التعايش السلمي مع باقي البشر.

تبقى الحرب على الإرهاب ذروة يوم الجرذ. إنها، إذ تعيد صياغة موضوع الحرب الباردة لصراع إيديولوجي على مستوى كوكبي بأصدائه وآثار أقدامه في جميع الأمكنة، بما فيها أمريكا، كابوس أقدم بكثير يعاد إحياؤه. جرى ابتداعها (الحرب على الإرهاب) من قبل أنصار حرب باردة متشددين مولعين بثنائية الخير والشر البسيطة التي جعلت جميع الحسابات تبسيطية، مباشرة وخصبة بالنسبة إلى المصالح الثابتة التي يمثلونها بكثير من الاقتدار والكفاءة. وهذه الحرب الجديدة، الحرب على الإرهاب، تنطوي على أفضليات هائلة مقارنة بسابقتها. هذه الحرب افتراضية: هي حاضرة دائماً في كل مكان وفي لا مكان، ليست موجودة إلا في التعريف، لأنها ليست حرباً ضد أمم أو دول محددة ملموسة، بل ضد أولئك الذين يعارضونها. إنها في الحقيقة أكثر حالات التكرر أساسية لثنائية المتحضر/المتوحش، بالقدر نفسه من الافتقار إلى الاهتمام مثل نظيره القديم في مصير الهندي الطيب. ثمة منذ الآن آلاف من غير المقاتلين الأبرياء، من مواطني أفغانستان والعراق العاديين، قد ماتوا، قد شُوِّهوا، قد كانوا شهوداً على تعرُّض أسباب حياتهم وممتلكاتهم للتدمير. لم يتم إحصاء أعدادهم، كما لا يتذكرهم أحد إضافة إلى أن الحوارات السياسية الأمريكية لا تأتي على ذكرهم. يظل الأمن الأمريكي، حق الأمريكيين في الحياة، الموضوع الوحيد الطاغي على الكلام السياسي. هل هذه الأرواح المفقودة أقل قيمة، أقل قابلية

للتعويض؟ بالنسبة إلى الناس في كوكب الأرض، لابد لهذا الصمت عن هذه القضية من أن يشي بقَدْر بالغ القَسوة والفظاظة من الاحتقار لأرواح وحيوات غير الأمريكيين، دون أن يفعل شيئاً على صعيد جعل الأمريكيين أكثر أمناً.

لقد أدت الأجواء السائدة المشبعة بالقلق، بالذُّعر وبالخوف بحفزٍ من جانب الولايات المتحدة إلى منع الأمريكيين من معاينة وحشية حضارتهم، القوة الغاشمة، الدائبة على زرع الرعب تحت قيادة وتصرف أولئك الذين يعدُّون أنفسهم طيبين لا لشيء إلا لأنهم قادرون، دونما جهد كبير، على التدمير دون اعتراف، إحصاء أو اهتمام بالآثار الجانبية الملازمة ـ بالهنود الطيبين الذين يُحصدون في أثناء تبادل إطلاق النار. يشكل إتقان تكنولوجيا الرصد والتدمير أساس قوة أمريكا الطاغية. يبدو أن الأمريكيين لا يفكرون على الإطلاق بمدى الخوف الذي تحدثه هذه القوة المتراكمة الظاهرة لدى الآخرين. غير أن الأهم من كل شيء هو أن الأمر لم يطلق أي تساؤل عن حدود ما يمكن إدراكه وبلوغه بمثل هذه الوسائل. فحين تصبح فكرة أن الحرب ضرورة متجذرة، تتم إزاحة الفكرة المضادة القائلة باحتمال عجز الحرب عن جلب السلام، عن توفير الشروط اللازمة للسلام، أو هي أكثر الوسائل إخفاقاً على صعيد التصدي للعدو وإلحاق الهزيمة به، عن جدول أعمال الحوار. أمريكا متأكدة من أن الأعداء كُثر؛ ذلك هو السبب الذي دفعها إلى تطوير مجمَّع عسكري ـ صناعي لردع الخصوم الفعليين والمحتملين، واحتوائهم، وإخافتهم واستئصالهم. ولكن ما كشفت عنه الحرب في العراق بقَدْر استثنائي من الوضوح هو مدى قصور، محدودية وخطأ هذه النظرة العالمية. لابد للتحقيقات والاستقصاءات المختلفة المتوغلة في كيفية

دخول أمريكا الحرب وفي الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها من أن تثير أسئلة أكثر بكثير من تلك التي أثارتها عيوب الأجهزة الاستخبارتية وإخفاقاتها. ما ينبغي أن يتعرض للمساءلة والتشريح هو مجموع الإخفاقات المنهجية والنظامية التي تعاني منها ما لدى أمريكا من تصورات ذاتية ونظرة عالمية.

ثمة أشياء كثيرة حافزة على إعمال الفكر في الشهادة التي أدلى بها أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الدكتور ديفد كي، رئيس فريق رصد العراق، الهيئة المكلفة بتعقب أسلحة الدمار الشامل التي كانت تهديداً داهماً وسبباً للحرب: casus belli بالنسبة إلى حرب العراق. قدم الدكتور كي تحليلاً شفافاً، إنسانياً ومهماً توغل في عمق سلسلة إخفاقات الاستخبارات الأمريكية. أشار إلى أنه ساد في الحرب العالمية الثانية اعتقاد عام بأن القصف الجوي الكثيف لألمانيا كان من شأنه تدمير إرادة القتال، إضافة إلى الإجهاز على قدرات ألمانيا الإنتاجية: "وكما تبين" لاحقاً، فإن إرادة القتال الألمانية تعاظمت تحت القصف والإنتاج الحربي تنامى وبقي متصاعداً حتى الشهرين الأخيرين من الحرب؛ كان هذا الإنتاج مستمراً في الازدياد". وفي مثال فيتنام ذكر الدكتور كي، موجزاً، بأن تقويمات مشابهة للتصميم المجتمعي والإنتاج الاقتصادي كانت على خطأ. وعلى امتداد خمسين سنة دأبت أمريكا على المبالغة في تضخيم التهديد المتمثل بالاتحاد السوفيتي. غير ان الدكتور كي لاحظ ما يلي: "بعد سقوط الاتحاد السوفيتي تكشفت حقيقة أن ما بدت قوة عملاقة بالغة الجبروت لم تكن سوى اقتصاد متهالك ومجتمع مثقل بمستويات مرعبة من مشكلات الصحة البشرية، من غياب التعليم كلياً، وصولاً إلى الوضع الراهن"[8]. تماماً كما في مثال

العراق، ما كان يبدو عدواً جباراً لم يكن في الحقيقة إلا مجتمعاً فاسداً ومتآكلاً في العمق في طريقه إلى التفكك الكامل.

هذه حكايات عن إخفاقات كبرى، ليس فقط للاستخبارات الأمريكية بل ولقُدْرة أمريكا على فهم باقي العالم. جميع هذه التقويمات، التي كانت أساس السياستين الخارجية والدفاعية الأمريكيتين، بُحثت ونوقشت وجرت مساءلتها. إن لأمريكا تاريخاً أسود لسوء تشخيص أهمية ومعنى سلسلة من الحركات في طول العالم وعرضه، لتوظيف طاقاتها العسكرية والاستخباراتية إضافة إلى قُدْرتها الدبلوماسية والاقتصادية من أجل التصدي لتماثيل من القش (نمور من الورق). فالحركات القومية ـ الوطنية، الحركات الساعية إلى العدالة الاجتماعية عبر الأمريكتين وفي طول العالم وعرضه عُدت شيوعية، ما قبل شيوعية، أو صديقة للشيوعية لابد من معارضتها واجتثاثها من الجذور. وفي أثناء المجابهة أعدادٌ لا تُحصى من البشر قضوا، حُرموا من الحرية والازدهار، عُذِّبوا وشُوِّهوا. ثمة كانت على الدوام أصوات معارضة داخل أمريكا، كما في سائر أرجاء العالم، أصوات دأبت على تأكيد أن هذه لم تكن إلا قرارات خاطئة مؤكّدة للظلم وعدم الأمن بدلاً من جعل أمريكا أو العالم مكاناً أكثر أمناً وأفضل. فالسؤال ليس: لماذا أخفقت أجهزة الاستخبارات؟ إنه: لماذا أخفق مجمل أجواء النظام القائم على المعلومات والحوار في أخذ مثل هذه القراءات البديلة للعالم بنظر الاعتبار، وبجدية فعلية. توصل الدكتور كي في شهادته أمام لجنة مجلس الشيوخ إلى استنتاج يقول إن الإخفاق كان كامناً في "قدرتنا الاستخباراتية البشرية "ضعيفة التمويل والمتخلفة، قابليتنا لـ "فهم الآخر". هذا هو جوهر مشكلة أمريكا مع نفسها ومع جميع الآخرين.

لقد جادلنا أن نواميس الميثولوجيا الأمريكية العشرة تساعد على تفسير المأزق الذي تواجهه أمريكا الآن ومعها العالم كله. من المفارقات الصارخة أن الحلم الأمريكي يجعل أمريكا غريبة بالنسبة إلى جزء كبير من ذاتها وتاريخها، تماماً كما يشل قُدْرتها على التمييز بين الواقع والأوهام السرابية في العالم الأوسع. فالإطار الإجمالي للميثولوجيا يقوم على غرس الإيمان بالاستثنائية الأمريكية، نوع من اليقين بأن أمريكا ليست خيّرة وطيبة فقط بل هي على صواب أيضاً، مما يجعلها مختلفة وأفضل، على نحو يتعذر طمسه، من سائر الشعوب والأمم الأخرى. ليس عداءً لأمريكا أن يقال إن هذه الغطرسة والعجرفة خطر على حياة الأمريكيين بمقدار ما هو خطر على حيوات الآخرين في كل مكان. ليست أمريكا الإمبراطورية الأولى التي شهدها العالم. والإمبريالية ليست علة متعذرة الشفاء، غير أنها علة مشوِّهة. إنها تشوِّه الغرائز الإنسانية الضرورية لبناء عالم مسالم، قابل للدوام ومترابط على أساس من العدل والشفافية لمصلحة الجميع. أما تحرير أمريكا من رؤيتها المشوِّهة لنفسها كما للآخرين، فيتطلب منها أن تستعيد القدرة على محاكمة احتمال وقوعها في الخطأ. والقول إن أمريكا ليست كاملة لا يعني اتخاذ موقف العداء من أمريكا بل يؤكد صحة الرأي الواضح وضوح الشمس القائل بأن الأمريكيين بشر، ويدعوهم إلى رؤية مآزقهم وهواجسهم منعكسة في مرايا حوارات ومشكلات باقي العالم. لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل من تشجيع الأمريكيين على عدم نسيان نصيحة جيمس ماديسون، أحد معماريي صرح الدستور ورئيس الجمهورية الرابع 1809 - 1817، التي تقول:

الالتفات إلى آراء الأمم الأخرى مهم بالنسبة إلى أي

حكومة، لسببين اثنين ـ من المفضل، أولاً، أن يبدو أي مخطط أو مشروع محدد، بصرف عن حسناته، ومن جوانب مختلفة، للأمم الأخرى نتاج سياسة حكيمة وشريفة؛ أما السبب الثاني فهو أن من شأن الرأي المفترض أو المعلوم للعالم المحايد في الحالات الملتبسة، خصوصاً حين تكون الأحكام القومية ـ الوطنية مرشحة لأن تبقى مغلفه بضباب كثيف من العواطف الجامحة والمصالح الآنية، أن يشكل الدليل الأفضل الذي يمكن اتباعه.[9]

أما إيلاء ما يلزم من "الاهتمام لآراء الأمم الأخرى واجتهاداتها"، فيُلْزم أمريكا باتخاذ خطوتين. إن الميثولوجيا، التركة الأسطورية، الأمريكية تضع أمريكا فوق البشر وفوق التاريخ. لذا، فإن على أمريكا، أولاً، أن تعود إلى الالتحاق بركب المجتمع الإنساني من جديد. أما الآراء الزاعمة أن أمريكا أمة يتعذر الاستغناء عنها، هي الديمقراطية المثالية، الضمير الأوحد للعالم، فلابد من معاينتها على نحو بالغ الجدية. ليست المسألة مسألة رؤية حقيقة أن الديمقراطية الأمريكية تعاني من خلل عميق، أن الضمير الأمريكي لا يكف عن إلحاق الأذى بالآخرين مع التغافل عن الغطرسة الأمريكية؛ إنها، في الوقت نفسه، مسألة النظر إلى مؤسسي الميثولوجيا الأمريكية على أنهم بشر من لحم ودم وليسوا آلهة أو ملائكة. فالمرء لا يتستطيع ببساطة، مثلاً، أن يتذكر جورج واشنطن رجلاً جديراً وملهماً دون أن يتذكر، في الوقت نفسه، أنه كان أيضاً مالك عبيد يرى سكان أمريكا الأصليين متوحشين في مرتبة الذئاب. إن الميثولوجيا تفقد قيمتها حافزاً ومصْدَرَ إلهام حين تطبع

التاريخ بطابع أناس متصفين بالكمال أوجدوا أمة نبيلة خالية من العيوب. لابد لرؤية الرجال الشجعان من أن توازَن بسجل التاريخ الأمريكي الحافل بالوحشية وجرائم إبادة الجنس، في القارة الوطن كما في الخارج. وتفكيك عناصر الميثولوجيا الأمريكية لا يعني، بالطبع، أن على الأمريكيين ألا يكونوا وطنيين. فسائر الأمم تثمن الروح الوطنية عالياً. غير أن الوطنية لا تعني الولاء لأي أسطورة، بله لتفسير محدد وخاص لتلك الأسطورة. وبالنسبة إلى الأمريكيين باتت الوطنية تعني أن "لا شيء عرضة للاتهامات بالخسة، بالخطأ، وبالشر، يمكن إلقاؤه على كاهل أمريكا. يلاحظ المؤرخ الهندي فيناي لال أن" النزعة الوطنية، الأمريكية "تولِّد مفهوماً أكثر إرضاء على الصعيد السياسي للتعالي أو التسامي: فالشر المتأبد في اسم دولة أمريكا القومية يمكن تجاوزه، آخر المطاف، بافتراض أنها لا تنتهك فكرة أمريكا الجوهرية بوصفها خزّان جملة الخيرات الاجتماعية والثقافية. غير أن فكرة أمريكا هذه، مهما فعلت أمريكا ومهما صدم تصرفها العالم دافعاً إياه إلى الاستقالة، اليأس والمرارة، لا يمكن أن تتلوث تلوثاً غير قابل للتطهير"[10]. إن مفهوم الوطنية هذا هو الذي يعمي الأمريكيين عن رؤية الهيكليات الموجودة للحكم، للإدارة، للقانون وللترتيبات الدستورية. إلا أن المؤسسات المبتكرة في التاريخ لا يمكن أن تدوم إلى الأبد؛ ما من شيء أنتجه بشر معرضون للوقوع في الخطأ مصمم ليدوم ويبقى صالحاً لجميع الأزمان ولكل الأمكنة. فالديمقراطية الأصيلة تلزم جميع مواطني أي دولة بنبذ تلك المؤسسات التي هي ظالمة أساساً وفي العمق ولا تخدم مصالحهم.

كذلك تبقى الديمقراطية الأصيلة بحاجة إلى مواطنين متحلّين بالوعي والدراية، قادرين على الانخراط جدياً في السياسة. أما في

المجتمع الأمريكي، حيث توصم المعارضة باللاوطنية ويجري تهميشها، فيغدو التحلي بالجدية حول أي شيء ـ سياسة، فنون، أدب ـ لا يمتثل كلياً لإملاءات الميثولوجيا الأمريكية، أكثر صعوبة على نحو متزايد باطراد. وحين تكون الحياة نفسها فلماً، فإن كل ما يبقى خارج نطاق السينما والشهرة أو النجومية يظل بعيداً عن الأنظار على نحو شبه كامل. فالسينما والشهرة، كما قلنا في الفصل الرابع، تشكلان محرِّك الإمبراطورية وعملَتَها الدارجة، فضلاً على أنهما تعززان، تتقيآن، تكرران ولا تكفان عن مواصلة إعادة ترسيخ الحلم الأمريكي كما حاولنا أن نبين في هذا الكتاب من أوله. لقد انتقل نزوع هوليوود إلى إعادة كتابة التاريخ في إطار الميثولوجيا الأمريكية، في الحقيقة، من كونه نزوعاً مثيراً للسخرية إلى صيرورته نُبْلاً مثقلاً بآيات العَبَث. فالطبعة الجون وينية (نسبة إلى الممثل الشهير جون وين ـ المترجم) القديمة لفلم الآلامو تم إطلاقها في 1960 عندما كانت الولايات المتحدة دائبة على التحضير لقصف فيتنام وإعادتها إلى العصر الحجري. أما الطبعة الجديدة فيجري إطلاقها فيما الولايات المتحدة مشغولة بجلب "الديمقراطية والحرية" إلى العراق. إن القصة الدائرة حول حصار 1836 لقلعة تكساسية من قبل جيش مكسيكي مؤلف من 7000 جندي هي إحدى الخرافات المركزية للميثولوجيا الأمريكية. غير أن أياً من الرواية الرسمية أو الفلم لا يطلعنا على حقيقة أن الأمريكيين الذين ماتوا في الآلامو كانوا يدافعون عن حق المستوطنين البيض في سرقة الأراضي المكسيكية، ويقاومون إقدام الحكومة المكسيكية على حظر عبودية الإنسان. قام هوليوود بإعادة كتابة تاريخ الحرب العالمية الثانية من الألف إلى الياء: الأمريكيون تولوا قيادة الهروب الكبير، وضعوا اليد على آلة

الشيفرة الملغزة في يو 571 (U 571)، وفي بيرل هاربر أحبطوا الغارة الجوية في صيف 1940. لا غرابة، إذن، أن يكون بيلي فيسك، البطل الأمريكي لـ "الساعة الأروع"، الذي فاز بالميدالية الذهبية الأولمبية ومات دون أن يُسْقِط ولو طائرة واحدة قد انتصر، في فلم القلَّة (The Few)، في معركة بريطانيا وحده. وفي الوقت نفسه فإن ساموراياً أمريكياً نجح قبل قرون في اجتياح اليابان في فلم الساموراي الأخير؛ ثمة فارس أمريكي في الغرب المتوحش امتطى جواده المُسْتَنْغ الأمريكي السريع وشق طريقه إلى النصر عبر صحراء شبيهة بالربع الخالي تمتد 3000 ميل في فلم هيدالغو؛ وفي أزمان سابقة للتاريخ هناك، سنباد، وهو نقيض بطل أمريكي مئة بالمئة، يجوب المحيطات في فلم سنباد: أساطير البحار السبعة. مثل هذه التشويهات الصارخة للتاريخ واستباحة ثقافات الآخرين قد يتم تقديمها وسيلة للتسلية، غير أنها تبقى صيغة ملحمية من صيغ ابتكار الأساطير و"فبركتها". فما تقدمه ليس إلا تمجيداً ذاتياً أُلبس ثوب الهَوَس.

غير أن هذا الهوس، بولائه المطلق للحلم الأمريكي الذي بات كابوساً محلياً وكوكبياً على حد سواء، لا يبشر الديمقراطية بأي خير. فالروائي جي. جي. بالارد يقول إن "من الواضح أن ليس هناك" في أمريكا اليوم "أي أحلام مكبوتة" أي كوابيس ممنوعة. فكل خوف وقلق مرضي/جنوني أمريكي مكشوف للملأ بدءاً بعربدات "زعران" التيارات اليمينية إلى فلم يوم ما بعد الغد. "ليست هذه إلا" تجليات مكشوفة لدوافع مدمرة للذات قابعة في الأعماق جنباً إلى جنب مع ثقافة الهامبرغر والمجلات المصورة التي تثير إعجابنا جميعاً. فمع بقاء الأمة مصرة على العودة إلى الطفولة، يتم الوصول أخيراً إلى منعطف يصبح

فيه الطفل المهجور محروماً من كل شيء سوى تحطيم سريره".[11] تبقى الميثولوجيا الطفولية الأمريكية دائبة أيضاً على ترسيخ نظرة امتثالية ـ وبالفعل فإن أمريكا، رغم كل المزاعم وادعاءات النزعة الفردية والحرية، هي إحدى أكثر دول العالم امتثالية. يحدثنا نيال غابلر قائلاً إن "الصيغ الروائية الخالصة التي تشكل أطراً لأكثرية أسباب اللهو متنكرة لكل ما هو شخصي من ذوق، حساسية أو ذكاء ـ أي شيء قد يساعد على انتزاع الفرد من براثن الكتلة الصماء غير المتمايزة وصولاً إلى تضييق دائرة مناشدة أي فلم، كتاب أو عرض تلفزيوني"[12]. معظم الأجانب يجدون هذه الامتثالية "التي لا تعرف معنى التمييز" لدى أمريكا مذهلة إلى حد إثارة الخوف. يتابع غابلر كلامه ليقول إن "المشاهير والنجوم في هذه الأمريكا الحديثة الامتثالية ليسوا فقط" أبطال نشراتنا الإخبارية، موضوعات خطابنا اليوم وخزائن قيمنا، بل هم متجذرون بقدر كبير من العمق في وعينا إلى درجة أن عدداً كبيراً من الأفراد يقرون بأنهم يحسون بأنهم أقرب إلى هؤلاء المشاهير وأشد حماسة لسلوكهم مقارنة بعلاقاتهم الأولية الخاصة".[13] وهكذا فإن التسلية لم تعد هروبية: الهروب نفسه أصبح هو سبب كون المرء إنساناً من الطراز الأمريكي.

لاحظوا كيف نجحت وسائل التسلية واللهو في غسيل أدمغة الجمهور العريض بموضوعي دولة الأمن القومي والمجمَّع العسكري ـ الصناعي. فالسينما والتلفزيون يتبجحان بالقوة العسكرية دون مساءلة كيفية استخدام تلك القوة. والقوات الخاصة، عملاء الإف. بي. آي. (مكتب التحقيقات الاتحادي)، جواسيس السي. آي. إيه. (وكالة الاستخبارات المركزية) وعملاء سريون آخرون لدى الحكومة شخصيات نمطية متكررة في الأعمال السينمائية والتلفزيونية. إن جَعْل الجيش

جيشاً محترفاً، وهو تحرك لم تُقْدم عليه أمريكا إلا بعد 1973 رداً على لاشعبية فيتنام، قد تم تدجينه بوصفه غطاء أمنياً للجمهور الأمريكي. وعملية الاحتراف هذه أصبحت كليشة دارجة. بدأت مع جون وين في رمال آيووجيما ـ حيث وين الرقيب الذي لا قلب له، لا يعرف معنى الرحمة دائب على تدريب جنوده وإعدادهم ليصبحوا قوة مقاتلة. إنها الشخصية التي يجسدها كْلِنْتْ إيستوود في منحدر الأسى (هارتبرك ريدج) وعدد كبير من الشخصيات الأخرى. إنها النص الفرعي لفلم بضعة رجال طيبين مع العديد والعديد من النصوص السينمائية الأقل شأناً. الهدف هو تصنيع آلات قتل متفوقة لا تنفّذ إلا الأوامر ولا تناقش الأوامر التي تتلقاها على الإطلاق. غير أن ما يشي به الأمر لا يشكل هاجساً لدى الجمهور الأمريكي. غير أن تنفيذ الأوامر آلياً دون نقاش كان، آخر المطاف، الهَوَس أو الجنون المحدد الذي عُقدت محاكمات نورمبرغ لشجبه والحكم عليه. إلا أن رجالاً أشداء، مدرَّبين، لا يطرحون أي أسئلة دائبين على فعل ما على الرجل أن يفعله لضمان بقاء الناس آمنين ليسوا موضوعاً سينمائياً مجرداً ـ إنهم حجر زاوية أمريكا الإمبريالية، الكابوس السينمائي الذي جرى إطلاقه والانقضاض به على الناس في أفغانستان، العراق وأمكنة أخرى. أما أداة هوليوود النظامية الأخرى، عملية تطوير دولة الأمن القومي والمجمع العسكري ـ الصناعي، فتلقن الجماهير درساً شديد الخصوصية. إنها مستنقعات القوة التي تقول للجمهور إن المواطن لا يستطيع إحداث التغيير، إن الإنسان الصغير الطيب ـ الإنسان الذي قاوم غسيل الدماغ الذي تمارسه الأفلام، المشاهير، التلفزيون، ألعاب الفيديو، والتسليات المعلوماتية المتظاهرة بأنها أخبار، والخارج لتوه من سجن فلم يوم الجرذ ـ إن هو إلا هو:

صغير عديم الأثر. قد يكون الشخص الطيب صغيراً؛ غير أنه (أنها) ليس (ليست) عديم (عديمة) الأثر على الإطلاق. باستطاعة "مواطني الإمبراطورية" الواعين المتنورين، كما يقول ربرت ينسن، أن يغيِّروا أمريكا ويؤنْسِنُوها.

لا تكف التقاليد عن التكيف المطرد مع التغيير؛ إنها تستمر بوصفها تقاليد، في حقيقة الأمر، من خلال إعادة اختراع ذاتها. الأمريكيون أيضاً بحاجة إلى إعادة اختراع ميثولوجيتهم في إطار أوسع للإنسانية. يرى فيناي لال أن نمط الحياة الأمريكي، وهو الذي ?يميز سلسلة المباريات التي تخاض في روابطه الرياضية الخاصة على أنها "مسلسلات عالمية"، بوفرة طعامه، مائه، وثرواته الطبيعية، تلك الوفرة المسلَّم بها، بالنظرة التي ترى الحصول على كميات غير محدودة من النفط حقاً دستورياً، بالوجبات العملاقة التي تقدَّم في المطاعم، بالولع بما هو كبير في جل مناحي الحياة ـ هذا كله مع أخرى إضافية تشير إلى بلد تتعذر إذابته في بوتقات التواريخ الثقافية والسياسية المعروفة لدى المجتمعات الإنسانية".[14] بعبارة أخرى، يتعين على الأمريكيين أن يلتحقوا بركب البشرية. أو على الأمريكيين، كما قال ينسن "أن يثقوا ببعضهم للتوقف عن العيش فوق العالم والشروع في العيش جزءاً من هذا العالم"[15].

العالم نفسه بحاجة إلى من ينقذه من هيمنة أمريكا. فالحرب، الأسواق، التسلية، جملة العناصر الأساسية للإمبراطورية الأمريكية، يجري فرضها عنوة ودونما رحمة على باقي العالم من منطلق الافتراض المتعجرف الذي يقول بأن ما هو خير بالنسبة إلى أمريكا خير بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء. وهذه، بالطبع، طريقة أخرى للزعم بأن التراث

والتاريخ الأمريكيين هما روايتان كونيتان قابلتان للتطبيق عبر جميع ظروف الزمان والمكان ـ وذلك هو ما أطلقنا عليه اسم الناموس العاشر للميثولوجيا الأمريكية. يجري فعل ذلك كله باسم الحرية والديمقراطية. ولكن أمريكا تضاعف من كثافة انتهاكها للحرية الأساسية وللتطلعات الديمقراطية لدى البلدان النامية كلما زادت من المبالغة في كيل المديح لـ "الحرية والديمقراطية". ليست "الحرية" بالنسبة إلى أمريكا سوى كلمة تُستحضر لتبرير طموحها الإمبريالي وإضفاء صفة القداسة على نفسها كما على ميثولوجيتها. كتب بنيامين باربر يقول إن "أخطر أشكال الاستبداد":

> هي تلك التي تُقدَّم تحت راية الحرية. من هنا جاء تحذير البابا يوحنا بولص الثاني الواضح من أن "البشر يواجهون أشكالاً من العبودية هي أشكال جديدة وأكثر مَكْراً من سابقاتها، وبالنسبة إلى عدد كبير جداً من الناس تبقى الحرية كلمة بلا معنى". هاكم مثالاً فاضحاً واحداً: حين تُربط الحرية بخصخصة سلع عامة بوضوح شديد مثل المورِّثة الإنسانية، تغدو مخاوف البابا مسوَّغة. لابد للحرية من أن تعني شيئاً أكبر من أرباح الشركات وخيارات المستهلكين.[16]

بنظر أكثرية سكان الكوكب الساحقة ليست الحرية مكافئة لـ"التجارة الحرة"ـ الاسم الملطف لنهب الشركات. وبقطع النظر عما تقوله الأساطير الأمريكية، فإن هناك طرقاً أخرى لامتلاك الحرية. وإحدى تلك الطرق تتمثل بالانعتاق من الهيمنة الثقافية الأمريكية. لا أحد خارج أمريكا يستسيغ، بالفعل، فكرة أن قوى السوق يجب أن تكون

العامل الحاسم لتحديد أنماط الثقافة. ما من ثقافة إلا وترى نفسها فريدة وجديرة بالبقاء، ومستعدة للقتال دفاعاً عن تراثها الثقافي في وجه اجتياح الأسواق الحرة ـ والأمريكيون ليسوا استثناء. يسأل باربر عما لو كان الرسميون سيبقون إذا تبين أن قوى السوق دائبة على إغراق أمريكا بثقافة مستوردة، مثلاً، من الشرق الأوسط أو أمريكا اللاتينية"[17] يقوم باربر بلفت الأنظار إلى مدى انزعاج الأمريكيين من إصرار اللاتين على التحدث بالإسبانية وعلى التعبير عن رغبة قوية في التمسك بتراثهم الثقافي. أين تتدخل قوى السوق في هذا الأمر؟ أو في قصة حركة "الإنجليزية فقط" أو المسارعة إلى تشفير أجهزة التلفزيون المنزلية للتحكم بما قد يشاهده الصغار؟ جوهر القضية هو أن ليس ثمة ماهو خاص بالأمريكيين. البشر الآخرون لديهم الهواجس والتطلعات نفسها مثل الأمريكيين. وتماماً مثلما يرفض الأمريكيون الخضوع لآخرين، تأبى سائر الشعوب والثقافات الأخرى الوقوع تحت سيطرة الأمريكيين. تبقى التجارب التاريخية الأمريكية والثقافة الأمريكية من الظواهر الإقليمية، المحلية أو المناطقية؛ ليست روايات كونية. لابد للميثولوجيا الأمريكية من التفكيك بالانطلاق من هذا الإدراك وصولاً إلى تمكينها ـ الميثولوجيا ـ من الانفتاح على احتمالات أخرى. أما الفكرة التي تقول إن على أمريكا بريئة وفاضلة أن تنقذ نفسها من عالم مخيف، عن طريق الانعزال أو من خلال فرض هيمنة مرعبة على الجميع دون استثناء، فهي فكرة بالية وخطرة.

إن عالم القرن الـ 21 عالم قائم على تبادل التبعية. وحقائق تبادل التبعية هذا شديدة التنافر والتناقض مع الميثولوجيا الأمريكية. ولهذه الحقائق متطلباتها الخاصة ـ والسلم الكوكبي ليس ممكناً دون

تلبية هذه المطالب. تؤكد جملة هذه الحقائق أن معاناة الآخرين وموتهم يجب عدهما بأهمية معاناة الأمريكيين وموتهم؛ كما يجب التعامل معهما بالقَدْر نفسه من الاهتمام والاحترام. وهي ترى وجوب تقويم ودعم ثقافات الأقوام الأخرى، مثل سكان أمريكا الأصليين وذوي الأصول اللاتينية، وتقاليدها بقدر مكافئ لتقويم ودعم ثقافة أمريكا المهيمنة مع تاريخها وتقاليدها. إنها تصر على فعل شيء ما بالنسبة إلى حالة أولئك المحرومين من الطعام والمأوى، كما من حقوقهم الإنسانية الأساسية، جراء سياسات اقتصادية أمريكية قائمة على الاستغلال ومصحوبة بعمليات نهب الشركات. وتؤكد الحقائق وجوب الاهتمام بضحايا السياسات الأمريكية الظالمة في الشرق الأوسط، خصوصاً إزاء الفلسطينيين. وهي تطالب بتركيز الاهتمام العاجل على سلسلة قضايا كوكبية مثل التغير المناخي ووباء الإيدز. وترى هذه الحقائق أن الهواجس الكوكبية، بدءاً باحتكار وسائل الإعلام وانتهاء بعصابات الجريمة المنظمة العالمية، يجب تحدّيها بقوة. يقول المستشار السابق لرئيس الجمهورية في شؤون الأمن القومي، ربغنيو بريجنسكي إن "أمريكا قد تكون متفوقة، ولكنها ليست كلية القدرة". فهي لا تستطيع تلبية متطلبات عالم متبادل التبعية أحادياً. يضاف إلى ذلك أن باقي العالم لا يتسطيع أن يتصرف كما لو أن سبب وجوده محصور بتوفير الأسواق لأمريكا، بتزويد الولايات المتحدة بالثروة وبالحفاظ على نمط حياتها القائم على المبالغة في الانفلات والإفراط في الاستهلاك. فأعباء عالم قائم على تبادل التبعية يتعذر تقاسمها دون آلية صنع قرارات مشتركة. لا تستطيع أمريكا تجنب الاستنقاع، العزلة والغرق في دوامة الهيمنة الرملية ما لم تبادر إلى صياغة استراتيجية شاملة بالتعاون مع شركائها الرئيسيين.[18]

بعد التحاقها بركب المجتمع الإنساني، يتعين على أمريكا أن تتنازل وتهبط إلى مستوى الالتحاق بركب تاريخ البشر. كان آباء أمريكا المؤسسون مغرمين كثيراً بالحضارة الكلاسيكية ـ وهي طاغية موضوعاتٍ وصوراً أدبية في الثقافة الأمريكية. وهكذا فإن الأمريكيين قد يكونون ميالين إلى مقارنة مصيرهم بمصير روما القديمة. فالجمهورية الرومانية ما لبثت أن أصبحت إمبراطورية عسكرية بات فيها مجلس الشيوخ، القابع فوق تلة الكابيتول بروما، آلة بَصْم غير ذات شأن بيد الإمبراطور المتحكم بالسلطة والمحرك لها كلها دون التفريط بلُغْز الصيغ الجمهورية مع مواصلة التطلع الحالم بنوع من العودة إلى الجمهورية وقيمها. وفي تلك الأثناء كان يجري إشباع جمهور الرعية بالخبز وإلهاؤه بحلبات السيرك. باتت أمريكا الآن متجاوزة للعتبة الفاصلة. فمجمّعها العسكري ـ الصناعي هو جوهر الاقتصاد ولُبُّه؛ الانفاق العسكري هو الحل العظيم لجميع المشكلات، الحل الذي يوظَّف لتبرير الحفاظ على فرص العمل والثروة. أضحى الأمن القومي يعني عملياً أمن الإمبراطورية التي أسستها أمريكا، لا من خلال أي إدارة مباشرة لأراضٍ أجنبية، بل عبر الهيمنة على اقتصاد كوكب الأرض كما على الشؤون الداخلية للدول الأخرى من خلال سلسلتها الطويلة من القواعد والتحكم بالمؤسسات الكوكبية. إن أمريكا إمبراطورية لا تشبه أي إمبراطورية أخرى لأن نمطها الإمبريالي ظل على الدوام يُدرَك ويُدار بوسائل غير مباشرة. ثمة رئيس جمهورية إمبريالي، ملكي، إمبراطوري، نجح، في غياب الرقابة المدققة، في مراكمة صلاحيات مع الإمساك بمفاتيح سلطات غير ملحوظة وغير مصممة في الدستور؛ وتحت تصرفه الآن صف طويل من المؤسسات المعسكرة بدءاً بهيئة رؤساء الأركان المشتركة،

وكالة الأمن القومي والبنتاغون وانتهاء بالاف. بي. آي. FBI، السي. أي. إيه CIA ووزارة أمن الوطن، التي هي، في حقيقة الأمر، دُوَلٌ فعلية موازية داخل الدولة. لعل السخرية الكبرى، لأن الأمر لا ينطوي على أي مفارقة، هي أن الحرب على الإرهاب قد أُعلنت من جانب المحافظين الجدد المتمسكين كثيراً بخطاب الالتزام بالمعنى الحَرْفي للدستور، بأجهزة الحكم المقلصة وبتخفيض الضرائب. ظل صرف أنظار الكتلة السكانية الكبرى عن هذه التطورات المثيرة للقلق عبر زيادة أسباب اللهو وصعود ثقافة النجوم والمشاهير بوصفهما من أشكال التعبير عن نمط حياة قائم على الوفرة. خطت روما باتجاه النظام الدكتاتوري ببطء ـ تماماً كما تتحرك أمريكا الآن نحو حكم طغموي (أوليغاركي) مستند إلى مصالح الشركات والعائلات الغنية. لم يمض طويل وقت حتى تفجرت حرب أهلية طاحنة في روما بسبب جملة الصراعات الناشبة بين الأغنياء والفقراء، بين النبلاء والعوام. لا تجوز المبالغة في إيراد أوجه الشبه. ليست أمريكا بحاجة إلى الانزلاق في نزاع داخلي، على الرغم من أن السياسة مستقطبة كلياً، عاكسة فجوة ثقافية هائلة بين أنماط الحياة الفردية من ناحية والقيم الأخلاقية من الناحية المقابلة ومستمدة زخمها من هذه الفجوة، وهي فجوة ممتدة من موجات الأثير إلى منابر الوعظ في المعابد، ومن رفوف الكتب إلى غرف النوم. ومع ذلك كله، تبقى أمريكا ـ ومعها الأمريكيون ـ قادرة على إنقاذ نفسها.

ما إن يدرك فيل، للمرة الأولى، أنه واقع في شَرَك يوم الجرذ، حتى يستنتج أنه بات متحرراً من جميع المسؤوليات. "ليس ثمة أي يوم غد. من شأن ذلك أن يعني إلغاء احتمال العواقب. ليس ثمة أي صُداع صباحي موروث عن الإفراط في السكر ليلاً. كنا قادرين على فعل كل ما

نريده". غير أنه سرعان ما يفهم أن من شأن مثل هذا السلوك أن يفضي إلى الاكتئاب واليأس. وبداية النهاية تحل حين يقرر صاحبنا فيل أن يتغير. يحيّي زبون الفندق الذي يصادفه كل صباح بكلمات موحية بالأمل والوعد. يصرع النادل المسكين أرضاً التماساً لطعام الفطور؛ بل ويحاول إنقاذ حياته عبر إنعاشه عن طريق التنفس من الفم إلى الفم. حركات تأمل ذاتي صغيرة تقود إلى أمور كبيرة. إن أمريكا بحاجة لأن تحذو حذو فيل فتدرك أنها لا تستطيع أن تواصل الوجود داخل دوّامة تصوراتها الذاتية المَرَضية القائمة على المبالغة في التفخيم. لابد لـ"أعظم بلد سبق له أن وُجد على وجه الأرض" أن يلتحق بركب الأسرة الإنسانية إذا أراد الإفلات من قبضة يوم جرذ بتاريخه ومثيولوجيته الخاصين.

obeikandl.com

obeikandl.com

هوامش الكتاب

هوامش المقدمة

1- جوشوا غامسون؛ ادعاءات الشهرة: النجومية في أمريكا المعاصرة؛ بيركلي، مطابع جامعة كاليفورنيا، 1994. كان عنوان مقدمة غامسون: "تفسير آنجلين".

2- أحد أفلام ألكس كوك؛ إخراج ماترون/زد مشترك للبي.بي. سي.؛ بثّته محطة بي. بي. سي. 4، يوم الجمعة الواقع في 2004/1/9.

3 – نيكولاس ليمان؛ "النظام العالمي التالي"؛ النيويوركر، 2002/4/1.

4 – متوفر على موقع .www.newamericancentury.org

5- وليم رفرز بيت؛ "مشروع القرن الأمريكي الجديد"؛ 2003/2/25؛ متوفر على موقع www.truthout.org

6- نيويورك؛ فايكنغ برس، 2003.

7- "أممية تقدمية: استراتيجية أمن قومي تقدمية"؛ واشنطن، العاصمة: معهد التخطيط التقدمي؛ 2003/10/30؛ متوفر على موقع www.ppoinline.org

8- جون بِلْجَر "بوش أم كري؟ لا فرق"، النيو ستيتسمان، 2004/3/8، ص: 18.

9 – تشالمرز جونسون؛ بلايا الإمبراطورية: النزعة العسكرية، السرية ونهاية الجمهورية؛ نيويورك: متربوليتان بوكس، 2004؛ ص: 51.

10 – وليم بفاف؛ عواطف بربرية: أمريكا في القرن الجديد؛ نيويورك: هل آند وانغ، 2000؛ ص: 275.

11 – غور فيدال؛ انحطاط الإمبراطورية الأمريكية وسقوطها؛ شيكاغو: أودونيان برس، 2000.

12 – بول كروغمان؛ الانحلال الكبير؛ نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون، 2003.

13 – مقتبس في موريس بيرمن؛ خريف الثقافة الأمريكية؛ نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون، 2003، ص: 23.

obeikandl.com

هوامش الفصل الأول

1 - رتشارد سلوتكين؛ الإحياء عبر العنف؛ نورمان أوكي: جامعة أوكلاهوما، 2000 آ؛ ص: 4.

2 - مقتبس من خارطة فيرجينيا مع وصف سلع حكم الشعب ودينه بقلم الكابتن جون سميث حاكم الولاية في أحد الأزمان؛ منشور في أكسفورد سنة 1612.

3 - للاطلاع على مناقشة أكمل للكابتن جون سميث وأسطورة البوكاهونتا انظر: ضياء الدين سردار؛ ما بعد الحداثة والآخر؛ لندن، بلوتو برس، 1998؛ ص: 87 - 108.

4 - انظر روجر باترا؛ "اكتشاف المتوحشين الأوربيين"؛ في كتاب رشيد آرايين، سين كوبيت وضياء الدين سردار (محررين) الكتاب التعليمي الثالث للفن، الثقافة والنظرية؛ لندن: كونْتِنُوم، 2002.

5 - سلوتكين؛ مصدر سبق ذكره، 2000آ؛ ص: 4.

6 - رتشارد سلوتكين؛ أمة مقاتلة؛ نورمان أوكي: جامعة أوكلاهوما، 2000 ب، ص: 256.

7 - جون جي. كاولتي؛ مسلسل لُغْز البنادق الست؛ باولنغ غرين، أو إتش: جامعة باولنغ غرين، 1999، ص: 1- 2.

8 - باري غلاسنر؛ ثقافة الخوف؛ نيويورك: بيسك بوكس، 1999.

9 - دانييل جي. بورستن؛ الأمريكيون: التجربة القومية؛ فينتج بوكس، 1965.

10 - نيال غابلر؛ الحياة: السينما؛ نيويورك، فينتج بوكس، 1998.

11 -جوناثان جونز؛ "التخوم الأخيرة"؛ الغارديان، 2002/6/17.

obeikandl.com

12 – رتشارد سلوتكين؛ البيئة القاتلة؛ نورمان أوكي: جامعة أوكلاهوما، 2000 ج.
13 – غاري وِلْز؛ شر لا بد منه: تاريخ انعدام ثقة الأمريكيين بالحكم؛ نيويورك: تاتشسنون بوكس؛ 2002، ص: 28؛ التأكيد في الأصل.
14 – المصدر السابق؛ ص: 31.
15 – دولاب الإيموري، 2002/10/25؛ متوفر على موقع www.emorywheel.com

obeikandl.com

هوامش الفصل الثاني

1 - مقتبس في دستور الولايات المتحدة: تاريخ؛ متوفر على موقع المحفوظات القومية الأمريكية: www.archives.gov

2 - روبرت ينسن؛ مواطنو الإمبراطورية: صراع المطالبة بانسانيتنا؛ سان فرانسسكو: سيتي لايت بوكس؛ 2004، ص:3.

3 - منظمة غالوب، 1999؛ اقتباس روبرت إيه. دال ما مدى ديمقراطية الدستور الأمريكي؟ نيوهافن، جامعة ييل، 2001؛ ص: 122.

4 - مايكل شدسون؛ المواطن الصالح: تاريخ الحياة الأهلية الأمريكية؛ كامبردج؛ جامعة هارفارد، 1998؛ ص: 202.

5 - دانييل لازار؛ الجمهورية المجمدة نيويورك: هاركورت أند بريس، 1996؛ ص: 2.

6 - مقابلة مع بيل أورايلي في عامل أورايلي؛ لقناة الأخبار، 3/24/ 2004.

7 - لويس لافام؛ بانتظار البرابرة؛ لندن، فيرسو، 1997؛ ص: 220.

8 - لي غرينوود؛ "بارك الربُّ الولايات المتحدة الأمريكية"؛ قصائد غنائية نشرتها دار روتلج هل، 2000.

9 - دال؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 156.

10 - جون دبليو. كنغدون؛ أمريكا غير العادية؛ بَلْكونت؛ وادزوورث، 1999؛ ص: .IX

11 - دال؛ مصدر سبق ذكره؛ ص:2.

12 - المصدر السابق؛ ص: 115.

13 - وِلْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 16.

14 - المصدر السابق؛ ص: 57.

obeikandl.com

15 – درد سكوت مقابل ستانفورد، 60 يو.اس. (19 هاو) 393 من 1857.

16 – متوفر على موقع www.FairVote.org

17 – دال؛ مصدر سبق ذكره؛ ص:18.

18 – المصدر السابق؛ ص: 18.

19 – المصدر السابق؛ ص: 20.

20 – مقتبس في غابلر؛ مصدر سبق ذكره، 1998؛ ص: 30.

21 – دال؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 69 –70.

22 – وِلْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 19.

23 – المصدر السابق؛ ص: 16.

24 – المصدر السابق؛ ص: 20.

25 – انظر بيرنارد بيلن؛ الواقعية والمثالية في الدبلوماسية الأمريكية؛ مجموعة مقالات؛ بدء العالم من جديد؛ نيويورك، الفرد كنوبف، 2003.

26 – غاري وِلْز؛ "الثوريون الجدد"؛ ذه نيويورك ريفيو أوف بوكس، 1995/8/10؛ ص:52.

27 – لازار؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 284.

28 – لافام؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 68.

29 – المصدر السابق؛ ص: 68.

30 – وِلْز؛ مصدر سبق ذكره، 2002؛ ص:21.

31 – الاقتباسان المأخوذان من مندوب ماسا تشوستس وساموبل برايان واردان في مقال إدارة المحفوظات والسجلات القومية: "اتحاد أكثر كمالاً: إبداع دستور الولايات المتحدة" على موقع www.archives.gov

32 – غور فيدال؛ اختراع أمة: واشنطن، آدمز، جفرسون؛ نيوهافن؛ جامعة ييل؛ 2003؛ ص: 46.

obeikandl.com

هوامش الفصل الثالث

1- روبن وود؛ هاوارد هوكس؛ بيركلي، كاليفورنيا: جامعة كاليفورنيا، 1968.

2 - أندرو جي. باسيفيتش؛ الإمبراطورية الأمريكية: وقائع الدبلوماسية الأمريكية وعواقبها؛ نيو هافن؛ جامعة هارفارد، 2002؛ ص: 8؛ الاقتباس من أولبرايت؛ ص: X .

3 - جديده مورس؛ جغرافية أمريكا، 1789؛ ص: 469.

4 - بوسطن هيرالد، تشرين الثاني، 1789؛ مقتبس في ريجينالد هورسمان؛ الجمهورية الجديدة؛ لندن: لونغمان، 2000؛ ص: 6.

5 - جون ونثروب؛ نموذج للإحسان المسيحي، 1630؛ بوسطن: مجموعات جمعية ماساتسوستس التاريخية، 1838؛ الحلقة الثالثة، 7: 31- 48

6 - ستفن بروتيرو؛ مسيح أمريكي: كيف أصبح ابن الرب أيقونة قومية؛ نيويورك: فيرار، شتراوس أند جيرو، 2003؛ ص:9.

7 - كنيسة الثالثوث المقدس والولايات المتحدة، 143 يو. اس. 457؛ 1892.

8 - تيودور روزفلت؛ "توسيع السلام"، في مؤلفات روزفلت، المجلد: 12؛ نيويورك: تشارلز سْكْرِبْنَر، 1926؛ ص: 35 - 36

9 - مقتبس في سدني لِنْز؛ اصطناع الإمبراطورية الأمريكية؛ لندن؛ بلوتو، 2003؛ ص: 166 (مكتوب ومنشور أولاً في 1971).

10 - مقتبس في لِنْز؛ المصدر السابق؛ ص: 176، وباسيفيتش؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 79.

11 - مقتبس في باسيفيتش؛ المصدر السابق؛ ص: 55.

12 - مقتبس في لِنْز؛ المصدر السابق؛ ص:280.

13 – سلوتكين؛ مصدر سبق ذكره؛ 2000 ب؛ ص: 101- 106.
14 – مقتبس في لِنْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 175.
15 – مقتبس في ستيوارت سي. مِلاّر؛ التمثل الخير: الاجتياح الأمريكي للفلبين 1899 1903 ؟؛ نيوهافن؛ جامعة ييل، 1982؛ ص: 211.
16 – مقتبس في لِنْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 178.
17 – مقتبس في باسيفيتش؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: X .
18 – مقتبس في لِنْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 195.
19 – كنغزلي آميس؛ روديارد كبلنغ؛ لندن، ثيمز آند هدسون، 1975.
20 – مقتبس في لِنْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 212.
21 – مقتبس في المصدر السابق؛ ص: 215.
22 – أرنست آر. مي؛ الديمقراطية الإمبريالية: انبثاق أمريكا قوة عظمى؛ نيويورك: هاربر أند رو، 1961.
23 – باسيفيتش؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 6.

obeikandl.com

هوامش الفصل الرابع

1 - تصريح الرئيس كوليج أمام جمعية رؤساء تحرير الصحف الأمريكية؛ 1925.

2 - غابلر؛ مصدر سبق ذكره؛ 1998؛ انظر الفصل الأول: "جمهورية التسلية"؛ ص: 43 - 52.

3 - روبرت سكلار؛ أمريكا التي صنعتها السينما: تاريخ ثقافي للأفلام الأمريكية؛ طبعة منقحة؛ نيويورك: فنتج بوكس، 1994؛ ص: 22.

4 - المصدر السابق؛ ص: 29.

5 - إديسون وشركة موتوسكوب الأمريكية، 1902.

6 - سكلار؛ مصر سبق ذكره؛ ص: 38.

7 - المصدر السابق؛ ص: 40.

8 - حولية الصور المتحركة لعامي 1912؛ 1913؛ ص: 7.

9 - نيال غابلر؛ إمبراطورية من صُنْعهم: كيف قام اليهود باختراع هوليوود؟؛ نيويورك: آنكر بوكس، 1988.

10 - المصدر السابق؛ ص: 5.

11 - المصدر السابق؛ ص:4.

12 - المصدر السابق؛ ص: 6- 7.

13 - "كسب أسواق السينما الأجنبية"؛ سَيَنْتيفيك أمريكان؛ مجلد 25، 1912/8/20؛ ص: 132.

14 - إدوار جي. لوري؛ "التجارة تتبع السينما"، ساتردي إيفنغ بوست؛ مجلد 198، 1925/11/7؛ ص:12.

15 - مقتبس في سكلار؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 219.

16 - شركة السينما وهيئة أوهايو الصناعية؛ 1915.

17 - مقتبس في سكلار؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 148.

obeikandl.com

18 – مقدمة لكتاب ميني إي. كندي؛ البيت والصور المتحركة، 1921؛ ص: 3.

19 – دونالد يونغ؛ "معايير اجتماعية وصور متحركة"، حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية؛ المجلد 128، تشرين الثاني/ 1926؛ ص: 147.

20 – هوغو مونستر برغ؛ الفوتوبلّي: دراسة نفسية؛ نيويورك: دوفر 1916؛ بعنوان جديد الفلم، 1970؛ ص: 30.

21 – "قانون الصور المتحركة لعام 1930" (قانون هيز)؛ متوفر على الموقع www.artsreformation.com/a001/hays-code.html

22 – دليل هاليول للأفلام والفيديو 2003؛ لندن: هابر كولينز انترتينمنت، 2003.

23 – الدعاية بالأفلام؛ كونغرس الولايات المتحدة؛ لجنة التجارة الدولية بمجلس الشيوخ، 1942؛ ص: 423.

24 – مقتبس في غابلر؛ مصدر سبق ذكره، 1988؛ ص: 216.

25 – مقتبس في المصدر نفسه؛ ص: 195.

26 – المصدر السابق؛ ص: 196 -197 .

27 – انظر ضياء الدين سردار؛ الاستشراق؛ بكنغهام: أوبن يونفرسيتي برس، 1999.

28 – مقتبس في غابلر؛ مصدر سبق ذكره، 1988؛ ص: 432.

29 – كونستانتين كوستا غافراس؛ "مقاومة عقداء ديزني"؛ فصيلة نيو برسبكتيف، 12 (4)، خريف 1995؛ ص: 4 – 7.

30 – كما قيل في الفلم الوثائقي التلفزيوني؛ "الكابوس الأمريكي"؛ إنتاج أفلام مينرفا، إخراج آدم سايمون؛ بثته محطة البي. بي. سي. 2 في 2004/1/5.

obeikandl.com

31 – ضياء الدين سردار؛ عن حياة ما بعد الحداثة من الألف إلى الياء؛ لندن: فجن، 2002؛ ص: 35.

32 – تايم، 2004/4/19.

33 – جون ووكر؛ الفن والشهرة؛ لندن: بلوتو برس، 2003؛ ص: 16.

34 – إرفنغ راين، فيليب كوتلر ومارتن ستولر؛ قابلية رؤية عالية؛ شيكاغو: إن. تي.سي. بزنس بوكس، 1997؛ ص: 14 - 15.

35 – مقتبس في غابلر؛ مصدر سبق ذكره، 1988؛ ص: 216.

36 – دانييل بورستن في الصورة، أو ما الذي جرى للحلم الأمريكي؟؛ لندن: وايدنفلد آند نكلسون، 1998؛ ص: 70؛ مقتبس من قبل ووكر؛ مصدر سبق ذكره.

37 – ووكر؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 6 -7.

38 – ليو برودي؛ سُعار النجوم: الشهرة وتاريخها؛ نيويورك: فنتج بوكس؛ طبعة منقَّحة، 1997؛ ص: 599.

39 – المصدر السابق؛ ص: 600.

40 – حلَّلنا هذا الحدث في الجناح الغربي بقدر كبير من التفصيل وفي لماذا يكره الناس أمريكا؟؛ كامبردج: آيكون بوكس، 2002؛ الفصل الأول.

41 – بنيامين آر. باربر؛ صنع عالم الماك؛ فصلية نيو برسبكتيف، 12 (4)، خريف 1995؛ ص: 13 - 14.

42 – توماس فرانك؛ "عصر ظلام" في توماس فرانك ومات وايلاند، محررين؛ سلِّعوا معارضتكم؛ نيويورك، دبليو. دبليو. نورتون، 1997؛ ص: 272.

obeikandi.com

هوامش الفصل الخامس

1 – محرر يو. اس. كاميرا ماغازين؛ اقتباس على الموقع www.iwojima.com

2 – إدي آدمز؛ مقتبس في "مصور آيووجيما يخوض معركته الخاصة بعد خمين سنة"؛ ميتشل لاندسبرغ؛ www.ap.org.

3 – روي هوبس؛ عندما ذهب النجوم إلى الحرب؛ نيويورك: راندوم هاوس، 1994؛ ص: XVII.

4 – غاري وِلْز؛ أمريكا جون وين؛ نيويورك: تاتشستون، 1998.

5 – صنع أمة: 100 نقطة علام تحدد أمريكا؛ واشنطن، العاصمة: يو. اس. نيوز آند وورلد ريبورت، 2004.

6 – ديفد رايان؛ سياسة أمريكا الخارجية في تاريخ العالم، 2000؛ ص: 23.

7 – لِنْز؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 35.

8 – سلوتكين؛ مصدر سبق ذكره، 2000 ب.

9 – المصدر السابق؛ ص 89.

10 – بيتر بسكند؛ أن ترى يعني أن تصدق: كيف علَّمَنا هوليوود أن نكفَّ عن القلق وأن نحب الخمسينيات؛ نيويورك، آول بوكس، 1983.

11 – جوليان سميث؛ إدارة الظهر: هوليوود وفيتنام؛ نيويورك؛ تشارلز سكربنر، 1985؛ ص: 43.

12 – إف. إي. لونغ؛ "ميزات نمو البحث والتطويرا لعسكريين"، في كتاب تأثير التكنولوجيات الجديدة على سباق التسلح، تحرير بي. فلد وآخرين؛ كامبردج، ميت برس، 1971؛ ص: 271 - 303.

13 – مارتن جي. مدر هيرست؛ دوايت دي. آيزنهاور: أستاذ تواصل استراتيجي؛ وستبورت، غرين وود برس، 1993؛ ص: 191.

14 – كنث آرو؛ خيار اجتماعي وقيم فردية؛ نيويورك: وايلي، 1951؛ ص: 59 - 60 .

15 – جونسون؛ مصد سبق ذكره؛ ص: 32.

16 – جيمس ولسدون؛ "مهمة إلى كوكب رمسفلد"؛ الغارديان، 3/1/ 2004.

17 – بول روجرز؛ حرب على الإرهاب؛ لندن، بلوتو برس، 2004؛ ص: 83.

18 –جونسون؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 56.

19 – الجيش في الأفلام؛ مركز الإعلام الدفاعي. تفريغ كامل لحوار الفلم الوثائقي متوفر على موقع www.cdi.org .

20 – المصدر السابق.

21 – هنري جيرو؛ العيش في ظل النزعة التسلطية: ما قبل الفاشية، الليبرالية الجديدة وخريف الديمقراطية؛ نص ثالث، 69، المجلد 18، رقم: 24 تموز 2004.

22 – هنري جيرو؛ "الرأسمالية الكوكبية وعودة دولة الثكنات العسكرية"؛ مجلة آرينا؛ 19، 2002؛ ص: 141 - 160 .

23 – لِنْزْ؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 1 – 2 .

obeikandl.com

هوامش الفصل السادس

1- ضياء الدين سردار ومريل وين ديفيس؛ لماذا يكره الناس أمريكا؟؛ مصدر مذكور من قبل.

2 - مايكل إس. شيري؛ في ظل الحرب: الولايات المتحدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين؛ نيوهافن، كنتيكت: جامعة ييل، 1995؛ ص:81.

3 - مايكل إيغناتييف؛ "الإمبراطورية الأمريكية: العبء"؛ النيويورك تايمز ماغازين، 2003/1/5؛ القسم: 6؛ ص: 22.

4 - روبرت كيغن؛ "الإمبراطورية الخيّرة"؛ مجلة فورين بوليسي؛ صيف 1998؛ ص: 24 - 34 .

5 - روبرت كيغن؛ عن الفردوس والقوة؛ نيويورك: ألْفْرَدْ إيه. كنوبف، 2003.

6 - لِنْزْ؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: XII.

7 - ينسن؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 6، 9.

8 - بول بيرمن؛ الإرهاب والليبرالية؛ نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون، 2003.

9 - ستانلي كورتز، "امبريالية ديمقراطية: برنامج عمل"؛ بوليسي ريفيو؛ نيسان/أيار 2003؛ ص: 3 - 20.

10 - أنظر، مثلاً، آيفو اتش. دالدار وجيمس إم. لندسي (محررين)؛ أمريكا طليقة: ثورة بوش في السياسة الخارجية؛ واشنطن، العاصمة: بروكنغز، 2003؛ ومقالات مختلفة مؤيدة للإمبراطورية في كتاب من تحرير جيم غاريسون بعنوان الإمبراطورية الأمريكية: حقائق الدبلوماسية الأمريكية وعواقبها؛ كامبردج: جامعة هارفارد، 2002.

11 - فيليب بوبيت؛ ترس آخيل: الحرب، السلام ومسار التاريخ؛ لندن: آلن لين، 2002.

obeikandi.com

12 – فرانسيس فوكوياما؛ نهاية التاريخ والإنسان الأخير؛ لندن: هاميش هاملتن، 1992.
13 – المصدر السابق؛ ص: 48 - 50.
14 – المصدر السابق؛ ص: 51.
15 – المصدر السابق؛ ص: 73.
16 – المصدر السابق؛ ص: 126.
17 – ستيوارت سيم؛ عالم أصولي؛ كامبردج: آيكون بوكس، 2004؛ ص:151 - 152.
18 – ساموبل بي. هنتنغتون؛ "صدام الحضارات؟"؛ فورين أفيرز، 72 (3)، تموز/آب 1993؛ ص: 22 - 49 (ص: 30).
19 – ضياء الدين سردار؛ مصدر سبق ذكره؛ 1998؛ ص: 84.
20 – ساموبل بي. هنتنغتون؛ صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي؛ لندن: سايمون أند شستر، 1997؛ ص: 255.
21 – المصدر السابق؛ ص: 208.
22 – نيويورك: أبناء تشارلز سكربنر، 1948.
23 – روبرت دي. كابلان؛ "إمعان النظر في العالم"؛ ذه أتلانتيك مونثلي، كانون الثاني/ديسمبر 2001.
24 – ساموبل بي. هنتنغتون؛ "القوة العظمى في العالم"؛ ذه أتلانتيك مونثلي، كانون الثاني/ديسمبر 2001.
25 – هنتنغتون؛ مصدر سبق ذكره؛ 1997؛ ص: 59.
26 – المصدر السابق؛ ص: 187.
27 – ساموبل بي. هنتنغتون؛ مَنْ نَحْنُ: تحدي هوية أمريكا القومية؛ نيويورك: سايمون أند شستر، 2004.
28 – ليونغ يو؛ إمبراطورية العلاقات الدولية الممزقة؛ ألدرشوت: آشغيت، 2003؛ ص: 141.

29 – فريدزكريا؛ مستقبل الحرية: الديمقراطية اللاّليبرالية في الداخل والخارج؛ نيويور: دبليو. دبليو. نورتون، 2003.

30 – بنيامين آر. باربر؛ إمبراطورية الخوف؛ نيويورك: دبليو. دبليو. نورتون، 2003؛ ص:156.

31 – المصدر السابق؛ ص: 161 - 162.

32 – المصدر السابق؛ ص: 163.

33 – المصدر السابق؛ ص: 164.

34 ينسن؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 70.

35 – مايكل مان؛ إمبراطورية متنافرة؛ لندن: فيرسو، 2003؛ ص: 11- 12.

36 – غور فيدال؛ خطاب في حفل عشاء ببيت ماركوس راسكين في واشنطن العاصمة عام 1995.

37 – آمي تشوا؛ عالم يحترق؛ نيويورك: دبلدي، 2003.

38 – تشارلز وليم مينز؛ "مخاطر أمريكا الإمبريالية منها وعليها"؛ فورين بوليسي؛ صيف 1998؛ ص: 36 - 47.

39 – جيمس بوفارد؛ الإرهاب والطغيان: دوس الحرية، العدالة والسلم لتحرير العالم من الشر؛ نيويورك: بالغريف ماكيلان، 2003.

40 – شاول لانداو؛ الإمبراطورية الاستباقية؛ لندن: بلوتو برس، 2003؛ ص: 29.

41 – مينز؛ مصدر سبق ذكره.

42 – مان؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 15.

43 – باربر؛ مصدر سبق ذكره، 2003؛ ص: 164.

44 – جورج شوروش؛ فقاعة تفوُّق أمريكا: تصحيح إساءة استخدام قوة أمريكا؛ نيويورك، بَبْليك أفيرز، 2004.

45 – إيمانويل تود؛ بعد الإمبراطورية: انهيار النظام الأمريكي؛ كامبردج، جامعة كامبردج، 2003.

obeikandl.com

46 – مان؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 13.

47 – مينز؛ مصدر سبق ذكره.

48 – روبرت جي. لِفْتون؛ عقدة القوة العظمى: مجابهة أمريكا الكارثية للعالم؛ نيويورك: نيشن بوكس، 2003.

obeikandl.com

هوامش الختام

1 – غابلر، مصدر سبق ذكره؛ 1998؛ ص: 11.

2 – الكسس دوتوكفيل؛ الديمقراطية في أمريكا؛ نيويورك: مكتبة افريمان، 1994.

3 – انظر جون جي. بتني الابن؛ "خدعة توكفيل"؛ ذه ويكلي ستاندارد، 1995/11/13؛ متوفر على موقع www.tocqueuille.org

4 – المصدر السابق؛ على الموقع نفسه.

5 – بل أو. رايلي؛ "كره أمريكا"؛ مذكرة نقاط حديث على عامل أورايلي؛ قناة فوكس نيوز؛ 2004/7/7؛ متوفر على موقع www.foxnews.com؛ منذ 2004/7/8.

6 – غابلر، مصدر سبق ذكره؛ 1998؛ ص:17.

7 – انظر ماليز روثفن؛ الأصولية؛ اكسفورد؛ جامعة اكسفورد، 2004.

8 – جلسة استماع لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ بتاريخ 28/ 2004/1؛ النص الكامل على موقع www.ceip.org

9 – جيمس ماديسون، في الفدراليست، مركز فرانكلن؛ بي. إيه. مكتبة فرانكلن، 1977، إف. 63؛ ص: 423 (الأصل 1961).

10 – فيناي لال؛ "الإمبراطورية وحلم أمريكا"؛ غلوبال ديالوغز، 5؛ شتاء/ربيع 2003؛ ص: 1 - 2.

11 – جي. جي. بالارد؛ "في أمريكا الحديثة، ليس أي كابوس محظوراً"؛ الغارديان، عرض، 2004/5/14؛ ص: 7.

12 – غابلر، مصدر سبق ذكره؛ 1998؛ ص: 19.

13 – المصدر السابق؛ ص:7.

14 – لال؛ مصدر سبق ذكره.

15 – ينسن؛ مصدر سبق ذكره؛ ص: 135.

16 – باربر؛ مصدر سبق ذكره؛ 2003؛ ص: 167.

17 – المصدر السابق؛ ص: 38.

18 – زبغنيو بريجنسكي؛ "رمال الهيمنة المتحركة"؛ ذه ناشيونال انترست، 74، شتاء 2003 - 2004؛ ص: 5 - 16.

obeikandl.com